من أدب العصر السوفياتي

# أحلام تانيا

ترجمة
احسان الملائكة

مكتبة ملهم

رواية من الأدب السوفياتي

# أحلام تانيا

**كتبها بالروسية  روفيم فرايرمان**

**ترجمتها عن الإنكليزية**

**إحسان الملائكة**

# THE DINGO

Ruvim Freierman
Foreign languages publishing house.
Moscow 1959

Translated from English by
Ihsan Al Malaika

**- 1-**

انحرف خيط الصيد الناعم صوب جذع غليظ غمرته أمواج النهر، كانت فتاة يافعة تمسك بطرفه منتظرةً اقتراب سمك السلمون، وتجلس بسكون فوق صخرة كبيرة، وهي تحدق بشرود ذهن في الماء تارة وفي الجبال النائية المكللة بالغابات والمطلة على النهر تارةً أخرى. وإذ آذى عينيها ألق الماء أرهق أذنيها صخب الموج، فرفعت بصرها إلى السماء المحصورة بين قمم الجبال، والشبيهة بواد توهجت فيه خيوط شمس منحدرة نحو المغيب.

لكن السماء التي ألفتها منذ الطفولة لم تكن موضع اهتمامها، اذ سرعان ما عادت العينان الواسعتان إلى ماء النهر الدائم الجريان تغرقان فيه وكأنهما تتقصيان منابعه المجهولة ومصباته الغامضة. لقد كانت تهفو إلى رؤية بلاد جديدة، واكتشاف عالم مختلف تقطنه مخلوقات من نوع "دينغو" (1)، وتتمنى أن تكون في مستقبل أيامها بحارة...ومغنية أيضا.

وطفقت تغني بصوتها اللطيف، غير أن أحداً لم يسمعها، ولم يتحرك سوى فأرة ماء صغيرة، كانت مختبئة عند أصل شجرة غليظة، اذ مرقت سابحةً نحو حفرتها، وهي تسحب قصبة طويلة خضراء، وتحاول، دون جدوى، تخليصها من حزم الحلفاء الكثيفة التي اشتبكت بها. كفت الصبية عن الغناء ورمقت الفأرة بعطف، ثم نهضت ورمت بخيط الصيد قريباً منها. فما كان من الفأرة إلا أن تدس أنفها بفزع بين أعشاب الحلفاء. عند هذا وثب سلمون أرقش من بين الأمواج في الهواء، ثم غاص مرة ثانية في ماء النهر.

كان الوقت قد تأخر، فالشمس تنحدر نحو المغيب لتختفي خلف أشجار الصنوبر في ذرى الجبال. لكن الفتاة تركت موضعها متمهلة، ومضت تسير بخطى خفيفة، مرتقيةً شعاب الجبل، ومقتربة من الغابة الجاثمة على المنحدر ثم دلفت إلى الغابة فماتت في اذنيها بقبقة الماء المتفجر في الصخور، وابتلعتها سكينة العصور.

فجأة دوى النفير في مخيم الرواد فشق السكون الذي يلف أشجار التنوب. غير أن ذلك لم ينذر الفتاة بضرورة الاسراع في السير، بل دارت بتراخ حول نقع تلألأ فيه زنابق مائية صفرة الألوان ثم انحنت واقتلعت باقةً زاهيةً من جذورها. ولما تم ذلك لها انحنت بلغ سمعها وقع خطى، ثم ارتفع صوت يهتف:

---

"1" دينغو Dingo: كلب بري موطنه استراليا.

- تانيا!

التفتت لترى "فلكا" ابن قبائل النانـاي، واقفاً فـي الأخـدود عند كثيب النمل، وهو يلوح لها بيديه، ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة، واتجهت نحوه.
كانت بيده مدية فولاذية صغيرة يشذب بها غصناً طرياً قطعه من شجرة بتولا، وإلى جانبه وعاء مملوء بالتوت. وبادرها متسائلاً:

- أما سمعتِ صفير البوق؟ ألم يحن وقت العودة؟
- إنه يوم الزيارات في المخيم. لكن أمي مشغولة في المستشفى. وعليه فليس ثمة من ينتظرني. وماذا عنك؟ لا تبدو في عجلة من أمرك.

قال متلجلجاً :

- لقد جاء أبي من المراعي ليراني ففكرت أن أصحبه حتى غيضة التنوب فوق الرابية.
- وهل قطعت كل هذا الطريق لتودعه؟
- وما الداعي وهو سيمضي ليلته قرب المخيم؟ لكنني كنت أستحم عند الصخور الكبيرة ثم سمعتك تغنين فجئت أبحث عنك.

واحمرّ وجه فلكا لدى سماعه ضحكتها، وواصل حديثه:

- ما قولك في وجبة شهية؟ عندي عصير النمل!
- وجبة ثانية؟ ألم تطعمني هذا الصباح سمكاً نيئاً؟
- ليس السمك عصيراً، هاك تذوقي من هذا.

قالها وهو يرفع غصناً كان قد وضع بعناية في وسط التل ليجتمع النمل عليه، وضرب به على جذع الشجرة، فلم يبقى فوق سطحه الصقيل غير قطرات من الحامض، عند هذا قربه من شفتيه، ولحس بعض قطرات منه، ثم قدمه لتانيا لترتشف منه ما تشاء، فقالت بتلذذ ظاهر بعد أن امتصت آخر قطرة:

- ما أشهى طعمه!

ثم سارت وإلى جانبها فلكا وهما صامتان، لأن سكون الغابة يحرك في رأس تانيا الأفكار، أما فلكا فإنه لم يعرف – بعد انتهاء الحديث عن عصير النمل – موضوعاً جديراً بالاهتمام.
وحين بلغا السفح الثاني من الجبل، ظهر المخيم من بعيد، بخيامه المرصوفة على شكل صفوف منتظمة فوق السهل العريض. ثم سمعا ضجيج التلاميذ فالتفتت اليه وقالت : انهم يصطفون لأخذ الحضور. أليس من الأفضل أن تعود الى المخيم قبلي يا فلكا؟ ربما ضحك زملاؤنا وزميلاتنا من تلازمنا الدائم.

كانت تلك ملاحظة قاسية استاء منها فلكا، وحبست تانيا أنفاسها رعباً حين رأته يتعلق بأحد أغصان شجرة قريبة، ويقفز من الجبل إلى الممر الضيق تحتها، دون أن

ينطق بكلمة واحدة. لكنها استعادت الهدوء حين رأته يقف على قدميه ثانية، فاتخذت لنفسها طريقاً آخر، وهو شارع صخري تحفه أشجار الصنوبر، أوصلها إلى ظاهر الغابة.

مرت سيارة كبيرة تسرع بالآباء والأمهات العائدين إلى بيوتهم في المدينة، بعد أن قضوا النهار مع أولادهم في المخيم. لكن تانيا، التي لم تتوقع أن يزورها أحد أفراد أسرتها في هذا اليوم، أشاحت بوجهها، وواصلت المسير، دون أن تكلف نفسها تحية من في السيارة.

رفرف العلم فوق ساريته، وحياها زملاؤها وزميلاتها حين انضمت إلى إحدى الزمر المصطفة، ثم انتبهت إلى نظرة التحذير المرتسمة على وجه "كوستيا "، المشرف على الرواد (حركة الرواد للفتيان تابعة لتنظيم الشبيبة الشيوعي في الاتحاد السوفيتي سابقاً)، وسمعته يقول: تانيا سابانيقا، إياكِ أن تتأخري مرة أخرى!

كان وجه فلكا – الواقف إلى يمينها – يلمع مثل حصاة مبللة، بعد الحمام الذي أخذه في البحيرة، أما ربطة عنقه فقد بدت ندية موحلة.
وصرخ كوستيا: فلكا! أيّ صنف من الرواد أنت إذا كنت تجعل من ربطة عنقك محفظة ملابس كلما شئت السباحة!! لا تتكلف البراءة، فأنا أعرف ما أقول. وسوف تسمع بالحديث الجدي الذي سيكون لي مع والدك.

فكرت تانيا: "مسكين فلكا، إن الحظ قد فارقه اليوم". وأدارت وجهها إلى جهته، و تخشبتْ رقبتها في هذا الاتجاه لأن (زينيا) السمينة تقف في الجهة الثانية وتانيا لا تحبها.

كان هذا صيفها الخامس في المخيم. وللمرة الأولى شعرت بأن شيئاً من التغيير قد طرأ على مشاعرها نحوه. كانت سابقاً تحب الاستيقاظ قبيل الفجر لتراقب من خيمتها قطرات الندى وهي تتساقط من أوراق العليق، وتطرب لرنين بوق الكشافة وصداه في الغابة، وتهتز لأناشيد الرواد المتكررة حول نار المخيم. ما الذي تغير فبدل رأيها إذن؟ أهو النهر الدائم الانحدار إلى البحر؟ وما بالها تراقب هذا النهر بتهيب غامض دون أن تستطيع تفسير رغبتها المفاجئة بالهرب والابتعاد عن المكان كله؟ ثم ما هذه الرغبة الحادة في مشاهدة "دينغو"؟ من يدري، لعلها كانت تكبر...

ومضت تفكر في هذا المنوال طيلة فترة الاصطفاف. وعاودها التفكير بعد فترة حين جلست إلى العشاء في مطعم المخيم ذلك المساء. ولم ينقطع حبل تفكيرها إلا عند

اجتمع أعضاء الفريق قرب النار التي توجب على تانيا أن توقدها بعد أن تهيئ لها الحطب لأنها أحسن مَنْ يقوم بهذه المهمة.

توجهت للغابة بحثاً عن حطب للنار. ووجدت شجرة بتولا رشيقة كانت العاصفة قد اقتلعتها من جذورها ورمتها فوق الأرض حتى جفت تماما. حملت الشجرة اليابسة إلى المخيم ووضعتها فوق كومة من الخشب ثم أوقدت النار.

احترقت شجرة البتولا وارتفع هسيس ناعم دون أن تتطاير السنة اللهب. وطرزت النار ظلام الليل فبدا المنظر بهياً أخاذاً وتجمع الأولاد والبنات من مختلف الفرق ليظهروا اعجابهم بنار تانيا. ونصح الرواد بالترفيه عن أنفسهم. فعلت الهتافات ومضوا يهزجون ويغنون لكن تانيا لم تشارك زملاءها مرحهم. و مضت تحدق بعينين متسعتين في لهب النار . مقارنة بين النار والماء في حركتهما الدائمة وطموحهما المستمر إلى التسامي نحو العلا.

كانت تسمع للنار أغنية خفية تذكرها بأنشودة النهر الغامض، فتفيض في قلبها مشاعر الشوق والحنين إلى شيء آخر...جديد...لا تستطيع تحديده ولا تمييزه.

ولحظ فلكا كآبة تانيا فجلب وعاءه المملوء بالتوت ووضعه قرب النار لعله يلفت نظرها. ثم بدأ يوزع التوت على أعضاء الفريق و يخص تانيا بأفضل ما لديه. ونجحت الحيلة فبدأت تأكل بشهية بادية. وتنفس فلكا بارتياح، وطفق يقصّ على رفاقه حكاياته العجيبة عن الدببة التي يعرف عنها أكثر مما يعرفه الحاضرون، غير أن تانيا قاطعته قائلة:

- لقد ولدت و نشأت في هذه النواحي. ولست أرى موجباً لكل هذا الاهتمام بالدببة

انبرت زينيا تشرح لتانيا: ذلك لأنّ الدببة تملأ المكان، ونحن نعيش وسط الأحراش.

كانت زينيا السمينة فتاة سطحية تستطيع أن تجد تفسيراً لكل شيء في الدنيا. نظرت تانيا إليها مفكرة، ثم طلبت من فلكا أن يتحدث عن الدينغو. لكن فلكا الذي يعرف كل شيء عن كلاب الصيد لم يكن يعرف أي شيء عن الدينغو. كذلك فإن الأولاد الآخرين يجهلون هذا الاسم.

قالت زينيا: لكن، ما الذي يدعوك يا تانيا للسؤال عن الدينغو؟

واذ لم تجد تانيا جواباً معقولاً، اكتفت بأن تنفث زفرةً حارة. وكأن آهتها استفزت شجرة البتولا المشتعلة، فما كان منها الا أن ترتعد بعنف مثل أي مخلوق حي، ثم تهاوت إلى التراب متحولة في لحظة واحدة إلى رماد هامد.

علا ضجيج الرواد حين ساد الظلام، واشتدت احتجاجاتهم لكن صوتاً غير معروف لديهم ارتفع فجأة فأسكت الجميع حين قال بلهجة روسية ركيكة:

- أيها الأصدقاء ما بالكم تصرخون؟

وامتدت يده السمراء الكبيرة فوق رأس فلكا، وطرحت حزمت من الخشب الجاف في النار الهامدة، فانزاح الظلام اذ تعالى اللهب وتألق كما تتألق النجوم، ولبث كذلك لفترة طويلة. وثب الصغار عن مجالسهم فتحرك الرجل الغريب واقترب من النار، كان قصيرا ويرتدي طاقية من الجلد، وقبعة من لحاء الشجر

هتفت تانيا :

- أنا أعرفه، هذا والد فلكا، وأعتقد أنه سيبيت قرب المخيم.

سرَّ الصياد بهذا الترحيب، وابتسم لتانيا وأومأ بالتحية، وكشر في وجوه زملائها مظهراً اسنانه المصفرة. وكان يمسك بيده غليوناً، يتنشق منه بين فترة وأخرى نفساً وينفثه في الهواء وهو صامت.

أنصت الأولاد إلى الصوت الرتيب المنبعث من الغليون فشعروا بالثقة و الاطمئنان إلى هذا الرجل الطيب. و حضر كوستيا لينبه إلى القانون الساري للرواد، و هو منع الغرباء من الدخول إلى المخيم. لكن الرواد هتفوا صائحين بصوت واحد:

- لا بأس عليه يا كوستيا، إنه والد فلكا، دعه يجلس عند النار معنا ليؤانسنا.
- والد فلكا؟ تلك مسألة أخرى

واقترب كوستيا من الصياد وقال :

- كنت أنوي التحدث إليك أيها الرفيق الصياد حول ولدك فلكا. هل تعلم أنه يأكل السمك النيء، ويغري الآخرين بأكله، لقد أطعم تانيا سمكاً نيئاً على سبيل المثال، ثم أنّه يسبح في منطقة الصخور الكبيرة التي نحرمها على الرواد. وهو لا يكتفي بكل ذلك بل يبلل ربطة عنقه كلما سبح. وكل تلك الأمور ممنوعة على الرواد.

وقبل أن يسمع إجابة الوالد، غادر كوستيا المكان وذهب يلقي نظرة على النيران الموقدة لبقية الرواد في المخيم، ولم يفهم الصياد كلما قيل له، لكنه تابع كوستيا بنظرة احترام ثم هز رأسه وقال بأسف بادٍ:

- فلكا! إني أمضي أيامي في المراعي النائية، لاصطاد الكواسر والوحوش من أجل أن أمكنك من العيش في المدينة والذهاب إلى المدرسة، ونيل ما تشتهيه نفسك، ومع ذلك فأنت لا تهتم إلا بما يثير شكوى رؤسائك!! ترى ماذا سيكون أمرك؟ وأي مصير ينتظرك؟ والآن ...إليك هذا الحبل فاحمله إلى الغابة، ولا تعد من دون الأيل الذي اصطدته، إنّه يرعى في مكان قريب.

وقف فلكا يدير عينيه في وجوه أصدقائه أملا أن يبادر أحدهم إلى نجدته، ويتحمل معه العقاب الذي فرض عليه. فيما شعرت تانيا بالحزن لأجله، لأنه يشاركها في كل ما يأكل، وربما كانت هي السبب في ذهابه إلى الصخور الكبيرة. لذلك وثبت بخفة وقالت:

- سأصحبك يا فلكا لتعيد الأيل إلى أبيك.

وهرعا إلى الغابة، فحيتهما الظلال المتشابكة فوق الطحالب بين أشجار الصنوبر وتألقت ثمار التوت تحت ضوء النجوم ووجدا الأيّل عند إحدى الاشجار يقضم الطحلب. وكان أليفا فلم يحتج فلكا ان يستعمل الحبل، وأمسكته تانيا من لجامه. وساروا جميعا فوق الأعشاب الندية إلى خارج الغابة.

ولما لمحهما الصياد يقودان الأيل بدا السرور على محياه، وعرض على تانيا أن تدخن الغليون مكافأةٌ لها على مجهودها غير أن فلكا عبس وقال: التدخين محرم على الرواد يا أبي.

دهش الصياد واشتد عجبه، لكنه حين دار الموضوع في ذهنه خلص إلى النتيجة التالية: وهي أن فلكا يعرف أشياء كثيرة لا يعلم عنها أبوه شيئاً! ولم لا؟ يذهب ولده إلى المدرسة ويضع ربطة حمراء حول عنقه؟

واقتنع الصياد باستنتاجاته فوضع يده على كتف تانيا بحنان، وراح الأيل ينفث أنفاسه الدافئة في وجهها، ويمسح قرنيه المتشعبان بثوبها، ولبثت النار تتوهج، واستمر الأولاد والبنات في أناشيدهم فأحست تانيا بانها لم تتذوق مثل هذه السعادة من قبل، وقالت لنفسها: هذا بالتأكيد أفضل من كل دينغو!

ومع ذلك، مع ذلك فإنَّ النهر لم يكف عن مناداتها؛ وتمهلت في أذنيها أصوات ارتطام الأمواج بالشاطئ، وأبى هدير الموج أن يفارقهما. إنها تحنّ إلى شيء ما، شيء يغير حياتها ويقلب كل كيانها...ماذا، ماذا؟؟

*

وقع التغيير الذي تاقت اليه تانيا بأسرع مما توقعت، فقد أعلن طبيب المخيم أن الخريف يقترب، وأن ندى الليل لم يعد ملائمًا للصحة. ولحظ الجميع أن زهور الصيف بدأت تفقد عطرها، وصار الندى يتمهل على الأوراق، حتى منتصف النهار. أما في الليل فإن الخيام تمسي ضحيةً لرطوبة الجو.

و تأبطت تانيا زنابق الماء التي قطفتها في اليوم السابق. وتدلى مزود السفر من كتفها، ولم يعد الناظر إليها يشك في كونها سائحة تعزم القيام برحلة طويلة، لكن العودة إلى المدينة لا يمكن عدها سفرة في الواقع، إذ لا يفصل بين المخيم والمدينة سوى الشارع الجديد الطويل المحفوف بأشجار التنوب الباسقة التي لم تجد ما تحمي به نفسها من غباره الرملي دائم الهبوب، غير أنّ أشواكها الزرق تلوح بها أمام الغبار لعلهُ ينثني عنها، ولكن دون جدوى.

سارت تانيا بخطى واسعات خلف موكب الرواد، وإلى جانبها فلكا ووالده، وكان الأيل يكمل الموكب ويضفي عليه الجلال المطلوب. غير أنه لم يكن مرتاحاً. فالغبار يثيره والألحان الحماسية الصادرة من أبواق الرواد تزيدهُ هياجاً. وحين مر رجال الجيش الأحمر فوق دباباتهم، واختلطت هتافاتهم برنين الأبواق فقد الأيل صبره، وجذب العنان من قبضة الصياد بقوة، وقبل أن يستطيعوا منعه، نفر مبتعداً واختفى عن الأنظار في الغابة وعلى ظهره متاع الصياد، وكل ممتلكات تانيا وفلكا!

أسرع فلكا وتانيا إلى الغابة يقتفيان أثر الأيل، وبعد إذ، وجداه في أيكة تخفق فيها أوراق البتولا مشاركةً اياه الخوف! واستغرق إقناعه أمداً، وأخيراً رضخ وسار خلفهما وعند بلوغهم الشارع الجديد كان كل شيء قد هدأ، إذ لم يبق لموكب الرواد أي أثر.

وأخيرا بلغت تانيا مسكنها. كان حذاؤها يتشكى من الوحل والشوك والحصى غير أنها لم تجد من يستقبلها. إذ اضطرت والدتها إلى الالتحاق بالمستشفى كما تفعل صباح كل يوم، أما (ناني) مربيتها فقد ذهبت إلى النهر لتغسل الملابس و كانت البوابة مفتوحة فدلفت تانيا إلى الحديقة .

إن إرضاء مسافر مجهد أمر في غاية البساطة، فكل ما يحتاج إليه جرعة ماء بارد، ورقدة مرتخية على العشب. أما الماء فإن تانيا تعرف مكانه، إنه محفوظ دائماً في برميل مشدود بمزلجة ثقيلة قديمة في وسط الساحة. وأما العشب فإن برد الليل كان قد جمد أوراقه وأذبلها.

رفعت تانيا سدادة البرميل، وأخذت مقداراً من الماء ورطبت ببعضه جذور زنابقها، وشربت الباقي. بعد ذلك قصدت مدخل الحديقة حيث تشمخ شجرة تنوب مزدهرة تمتد ظلالها حتى نهاية الحديقة، وبجانبها شجرة بتولا رقيقة إذا ما برد الخريف سرى الذبول إلى أغلب أوراقها.

مدت تانيا يدها إلى جذع البتولا تتلمسه وتساءلت: هل جاء الخريف حقاً؟ وجاء الجواب مباشرة، إذ قذفت البتولا في يدها ورقةً مصفرة متخشبةً. نعم إن الخريف على الأبواب بالفعل. لكن زهرات السوسن تحت النافذة مازالت طرية. وربما عاشت الزنابق اذا غرستها الآن .

وتلفتت حولها أليس من أحد هنا؟ غير أن شيئا ما تحرك عند قدميها وسمعت هريراً خافتا فخفضت بصرها لترى قطتها "قوزاق"، ترحب بمقدمها وتقف مع صغارها الهريرات في عرض مضحك لتزيد من سرور سيدتها. وكانت القطيطات قد كبرن خلال الصيف، وحتى " النسر " وهو أصغرها، لم يعد يخشى البط ولا الديدان مثلما كان يشعر في الماضي. وعند البوابة ظهر رأس غريب لكلب صغير الحجم تبدو عليه علائم الهرم. و ما كاد يرى تانيا حتى جمد في مكانه، ورفت عيناه الكليلتان بحياء لأنه كان آخر من يعلم بمقدم سيدته. ولم يدر كيف يعتذر منها ولذلك قرّ رأيه على أن يتكلف الجهل، وكل شيء جائز في دماغ الكلب! وهكذا استدار وأولى تانيا ظهره وكأنه متوجه إلى برميل الماء، غير أن خططه انهارت في لحظة واحدة، حين سمع تانيا تهتف:

أيها " النمر "! وفي وثبة واحدة كان عند قدميها يلعقها ويبصبص بذنبه مهمهماً في جذل وسرور، وربتت تانيا على رأسه الذي يتهدل منه شعر قصير، فوق جلد جعدته السنون، فلقد كان رغم اسمه البطولي هرماً ضعيفاً.

وفي غمرة فرحها بمشاهدة "النمر" لم تشعر تانيا بقدوم مربيتها "ناني" التي توجهت نحوها. كانت الغضون تغطي أسارير وجه المربية و قد وهنت عيناها بفعل مر السنين .

وضعت "ناني" وعاء الغسيل على الأرض، وانحنت قليلا لتقبل جبين تانيا ثم حدقت في وجهها وقالت: إنك سوداء مثل غراب!! ولستِ بأفضل من صاحبك فلكا، لقد ذهبت والدتك إلى المستشفى بعد أن طال بها الانتظار.. وبقينا – أنت وأنا – لوحدنا. وكذلك نحن دائماً. هل أوقد لك السماور؟ الا تريدين أن تأكلي شيئا. ترى ماذا أطعموك في المخيم؟ لابد أنك لم تحبي الطعام.

لكن تانيا لم تشعر بغير الوحشة وهي تتجول بين الغرف الساكنة، و تمس بيدها الكتب المنضدة على الرفوف. نعم كانت ناني على حق. فكم قضت الساعات منفردة تصنع بنفسها وبوقتها ما تشاء. غير أن أحداً سواها لا يعلم بمدى ضيقها بهذه الحرية، لو كان لها أخ أو أخت لهان الأمر. لكنها وحيدة أمها. وأمها عاجزة عن الترفيه عنها، لأنها تقضي أغلب أوقاتها في المستشفى مع مرضاها. وتبقى تانيا تعاني آلام الوحدة في المنزل .

وترقرق الدمع في عينيها وشعرت بأنها تكاد تجهش بالبكاء. لقد كانت تحب والدتها حباً شديداً. وها هي تعود إلى الدار بعد عطلة الصيف فلا تجدها في استقبالها. كان هذا فوق ما تتحمله.

وفجأة تذكرت زنابق الماء التي جلبتها معها من الغابة، وقبل أن تغادر الغرفة وضعت يدها على ثياب والدتها برقة ثم خرجت. قالت لها ناني :

إن الخريف قد بدأ، ولا جدوى من غرس هذه الزهور.

صاحت الفتاة محتجة:

اتسمين هذا خريفاً؟ لا...لا

وكان لتانيا الحق كله في الانكار، لأن الخريف في هذا العام لم ينفث الضباب على المدينة. ثم أن الجبال القريبة ما تزال تبدو دكناء بأشجارها الخضر وكأنها في الربيع. أما الزهور الكبيرة في حدائق البيوت المجاورة فلم تفقد رونقها بعد، رغم زوال عطرها. وعلى ذلك فإنّ زنابق الماء لابد لها أن تتفتح إذا ما زرعتها الآن. ولسوف تبذل من أجل ذلك كل جهدها. وبمدية طويلة جوفت في التراب عدة حفر صغيرة، وضعت فيها جذور الزنابق، مثبتة سيقانها بعيدان رفيعة. ودار "النمر" حول الزنابق يشمها بفضول واهتمام، وتانيا تنظر إليه بسرور. و فجأة رفع رأسه الضخم ونظر فوق السياج والتفتت تانيا فوجدت فلكا جالساً عليه وهو عاري القدمين، ولا يغطي بدنه غير فانية قطنية بلا أكمام. صاح فلكا بحماس شديد:

تانيا تعالي إلى بيتنا لأريك فرقة كلاب تجر عربة تزلجٍ حقيقية، لقد أهداها إلى أبي هذا اليوم.

لكن تانيا عادت إلى الأرض تحفرها بيديها الموحلتين، والعرق يتصبب من جبينها. ثم قالت:

- أنت لا تقول الحقيقة. كيف استطاع والدك احضار الكلاب مع أنه كان معنا منذ ساعة؟
- لكني لا أكذب يا تانيا. لقد اشتراها منذ ثلاثة أيام. و أراد أن يفاجئني بها فطلب من مالكة البيت أن تحفظها لي حتى نعود من المخيم وهو يدعوك الآن إلى بيتنا لمشاهدتها.

حدقت تانيا في وجهه طويلاً. لعله كان صادقاً بعد كل شيء. والناس ينالون أحيانا ما يحلمون به إذا كان لهم آباء، لقد قرأت ذلك في الكتب.

وتركت عملها في الحديقة لتخرج مع فلكا الذي يسكن في الدار المجاورة وفتح لها البوابة، فرأت والده وبجانبه كلاب الصيد، وكان على عادته يدخن الغليون.

كانت الكلاب راقدة على الأرض وأنوفها الحادة تمس التراب. ولم ترفع رؤوسها عند مشاهدتها لتانيا. لكن نظرات العداء التي التهبت عيونها نبهت الصياد إلى الخطر. فوقف بين تانيا و الكلاب. وقال محذراً:

- إنها متوحشة أيتها الصديقة الصغيرة .
- و أضاف فلكا:
- ولاريب أنها أشد شراسة من كلبك الاسترالي: دينغو!
- قالت: كلا، دينغو لا نظير له في الدنيا لكن...هل لك أن تضع عليها عدة التزلج حتى أتفرج عليها.

تحير والد فلكا لهذا الطلب غير المنطقي. فما الفائدة من تهيئة الكلاب للتزلج أثناء الصيف؟ لكنه رضخ أخيراً بعد إلحاح تانيا وتوسلات فلكا. وحمل عدة التزلج، ودفع الزلاجة وصاح بالكلاب آمراً فوثبت من مراقدها، وهي تهمهم بتذمر بادٍ.

بدا السرور الشديد على تانيا. وأعجبت بفخامة السرج وبالعدة وبالمنظر كله وقالت بحماس: يالها من هدية رائعة!

ومع أن هذا الاطراء صدر من فم صبية فإنه أثلج صدر الصياد، إذ وجد فيه خير جزاء على ما يبذله في سبيل ولده من تضحيات ونكران ذات.

وتململت الكلاب محاولة جرّ الزلاجة على الأرض العارية من الثلج، فأخرج والد فلكا من حقيبته سمكاً مجففاً ورماه إليها مكافأةً لها على حسن طاعتها. ثم سحب من صداره سمكتين طريتين وقدمهما إلى تانيا وفلكا الذي بادر إلى وضعها في فمه ومضى يلوكها في فمه بأعلى صوت وترددت تانيا أول الأمر، ثم شرعت تمضغ مثل صاحبها.

فك الصياد وثاق الكلاب، ثم نزع لجام الأيل وقدم إليه شيئاً من الملح ليلعقه من يده كان الصياد على أهبه السفر. وخرج فلكا وتانيا لتوديعه عند باب الدار فقدم لتانيا احدى يديه ثم أعطاها الأخرى. وتلك هي عادة قومه في توديع الجيران. ولم ينس أن يسألها معاودة الزيارة بعد سقوط أول دفعة من ثلوج الشتاء. ثم أحاط كتف فلكا بذراعه وقال:

- أرجو ان تكون صياد بارعاً وطالبا مجتهداً، ولا تنس أن تضع ربطة عنقك في موضعها بحسب الأوامر التي صدرت إليك.

مضى الصياد ومعه الأيل. وعندما بلغ منعطف الشارع التفت إلى الوراء يلقي نظرة أخيرة على ولده، فبدا وجهه الذي كأنما قُدَ من صخر مشوياً بود وحنان مؤثرين وشعرت تانيا بأسف حقيقي لفراقه وقالت مفكرة:

- إن لك أباً طيباً يا فلكا.
- نعم وأنا أحبه حين يكف عن ضربي.
- وهل يضربك دائما؟
- كلا انه لا يضرب إلا في حالة السكر.
- يا للسماء!

وأنت ألا يضربك أبوك؟ وبالمناسبة أين هو؟ إني لم أره إطلاقا؟

أطالت تانيا النظر في وجهه، أكان يسخر منها؟ لكن فلكا قابل عينيها بثبات. وكانت عيناه مخلصتين ولا أثر للخبث فيهما، وأجابت باختصار:

- انه لا يضربني.
- لا ريب أنك تحبين أباك.
- كلا أنا لا أحبه
- عجباً... لماذا؟

فجأة توقف، وكأن شخصاً قطع لسانه بالسكين فقد لحظ الكآبة التي غامت على وجهها وعرفت تانيا أنه لن يجرؤ أن يوجه إليها سؤالاً آخر حول هذا الموضوع إذا تركته في حيرته فقالت:

- إني لا اعرف أبي في الواقع.
- أهو ميت؟

فهزت رأسها سلباً.

- أين هو إذن؟
- إنه بعيد، بعيد جداً، وربما كان البحر يفصلنا عنه.
- أهو في أميركا؟

أومأت برأسها بالإيجاب.

- في أمريكا إذن، لقد علمت ذلك.

لكنها عادت تهز رأسها نافية.

- أين هو إذن؟

كانت تانيا قد حيرته فانفجرت شفتاه ونظر إليها متسائلاً فقالت:

- هل تعرف الجزائر وتونس؟
- نعم انهما من أقطار افريقيا، أهو هناك؟

و للمرة الثالثة هزت رأسها بأسى .

- لا يا فلكا، هل سمعت بمكان يدعى ماروشيكا؟

ردد فلكا اسم "ماروشيكا " متعجباً وأنى له أن يعلم بأن ماروشيكا هذا هو اسم أحد شوارع موسكو؟! لكنه أحب حروف الكلمة فقال:

- لابد أنها بلدة رائعة ماروشيكا هذه .
- نعم إنه كذلك.

قالت هذا وأسرعت إلى حديقة دارها حيث اختفت عن عيني فلكا، تاركةً إياه واقفاً في الشارع والدهشة تعلو وجهه: ماروشيكا.. ماروشيكا من يدري ؟

ربما كانت اسماً لجزيرة محاها الصيف من ذاكرته وهو المعروف بين زملائه بالنسيان الشنيع لأسماء الجزر.

ولما كان فلكا قد نشأ في الغابات الخشنة لأبٍ صياد وأم ساذجة فإن الجزر لم تكن تعني لديه أي شيء، في الواقع.

*

بقبق الماء وتدفق من البرميل مثل شلال بين الصخور، ثم انساب على شكل جدول رقراق، بعد أن تحرر من قيود الأسر. غير أن تانيا التي كانت ساهمة شاردة الفكر، لم تر ولم تسمع شيئا، اذ أثار حديثهما مع والد فلكا كامن أشجانها، ومضت تفكر في هذا

الأب الذي لا تعرف عنه الا أنه يعيش في شارع ماروشيكا بموسكو، والذي استقر منها العزم - منذ عهد بعيد- على تناسي وجوده، بل على بغضه وازدرائه، ولم لا تفعل وهو الذي هجر أمها، وأهمل تربية طفلتهما الوحيدة ليتزوج من امرأة ثانية. لقد مات حبها لهذا الوالد منذ زمن بعيد، على الرغم من الثناء العاطر الذي كانت والدتها تسبغه عليه كلما وجدت مناسبةً لذلك. ولا ريب أن كبرياء الزوجة المهجورة هو الذي كان يدفعها إلى كيل المديح، أما أخلاق والدها فلا بد أنها سيئة.

على هذا المنوال دارت الأفكار في رأس تانيا، فنسيت الماء والبرميل والزهور والحديقة وكان الماء قد بلغ قدميها. ثم جرى إلى زهورها فأغرقها جميعاً وفجأة علا صراخ ناني المربية:

- انظري إلى ما تصنعين، تتركين الماء يجري من مخزنه وتعرضين نفسك للبرد، وها أنت فرجةً للناظرين. فكري بوالدتك لأنها هي التي ستدفع ثمن هذا الماء.

استفاقت تانيا من أحلامها، لتجد حذاءها موحلاً وجواربها ندية، ويديها سوداوين وكفت ناني عن الصياح حين لحظت قدمي تانيا، وأسرعت إلى البئر لتحضر لها قليلاً من الماء النظيف ثم وقفت أمامها تراقبها، وهي تزيل الأوساخ عن حذاءها، وتنظف قدميها بالماء البارد، وقالت:

- أنت تكبرين بسرعة، وسوف تبلغين الخامسة عشرة قريباً، ومع ذلك، فالاستقرار بعيد عنك. أنت فتاة مفكرة. نعم أنت كذلك .
- وما يعني هذا ؟ هل يعني أنني ذكية ؟
- لا ! لستِ بذكية لأنك تفكرين أكثر من اللازم! ثم أضافت بعد أن اضفت على صوتها لهجة آمرة:
- إلى المنزل ! ولا تنسي أن تضعي في رجليك زوجاً من الجوارب الجافة.

انصاعت تانيا لأوامر المربية العجوز، و خلعت حذاءها عند الباب و دخلت مخدع والدتها . وهناك جلست فوق جلد الغزال المفروش فوق الأرض لتشعر قدميها

بالدفء، ثم دفعت كفها تحت وسادة السرير للغرض ذاته، لكن الورقة التي طقطقتْ فجأة تحت أصابعها، بدت لها أشد برداً من ماء البئر الذي نظفت به جلدها قبل قليل. وسحبتْ الورقة بحذر وتأملتها متفحصة. كان لونها حائلا فاستخلصت أن والدتها لابد أن تكون قد قرأتها عشرات المرات: ترى ما معنى هذا؟ ليس من عادة والدتها وضع أوراقها الخاصة تحت الوسادة. أهي رسالة؟

وأمسكت بالغلاف فأعلمها قلبها الذي وثب بين ضلوعها بأنّ الرسالة من أبيها. كان عنوان المرسل كما يلي :

**الشقة 40/53**

**شارع ماروشيكا – موسكو**

طوت تانيا الرسالة بسرعة وأعادتها إلى مكانها تحت الوسادة وراحت تدور داخل الغرفة مفكرةً، ثم عادت وأخرجتها وبدأت تقرأ: "عزيزتي ماشا.. كتبت إليك عدة مرات لكن يبدو لي أن رسائلي لم تصل إليك لأنكما تعيشان في مكان بعيد، في الطرف الآخر من العالم، لقد تحقق حلمي أخيراً إذ عينوني في منصب ملائم مقره شرقي بلدتكم – ونحن قادمون إليكم – ناديا وكوليا وأنا – على جناح السرعة. لقد قُبل كوليا في مدرسة تانيا. وهو في صفها أيضاً، وأنتِ أدرى بمدى اعتزازنا بهذا الصبي. سوف نستقلُ المركب من فلاديفوستيك، ويمكن أن تتوقعي وصولنا في مطلع الشهر القادم. يؤلمني أن أعترف بأني لم أكن نعم الوالد لتانيا، وليس هذا بسبب انفصالي عنك لأني لا ألوم نفسي على ذلك، لكن ضميري يؤنبني حين أتذكر إهمالي لتانيا طيلة هذه السنوات رغم شدة حبي لها.

إنها لا تكتب إلى إلا في النادر. وهي لا تكاد تعرفني. ولذلك فإنّ فكرة لقائنا تخيفني قليلاً. إنها لم تكن تتجاوز الشهر الثامن عندما وقع الانفصال بيننا. وما زلت أذكر قدميها الواهنتين، وأصابعها التي لم يزد حجم واحدها عن الحمصة، وأما كفاها الصغيرتان الورديان ...."

لكن تانيا لا تتذكر شيئاً من كل ذلك. وراحت تتأمل ساقيها وجلدها الغض الذي لوحته الشمس، وقدميها المقوستين المريحتين ثم تحدق في يديها ومعصميها، وتنظر إلى الأصابع القوية، ثم تتذكر ابتهاج والدتها كلما لحظت نمو جسمها.

وطفقت تبكي...وتبكي... إلى أن أحست بأن حملاً ثقيلاً قد أنزاح عن صدرها، ثم تحول الحزن إلى نشوة غامرة لا تحسن وصفها، فها هو أبوها يعلن عودته اليها. ووثبت من الفراش وقذفت بالوسائد إلى الأرض ثم استلقت على ظهرها، فوقها.

ولبثت كذلك ساعة تبكي وتضحك في آن واحد. وفجأة خطر لها خاطر، ألم تعاهد نفسها منذ وقت طويل على بغض أبيها وتناسيه؟ ثم أين كبرياؤها؟ ألم يسرق منها ذلك الولد المدعو كوليا، حب أبيها منها؟ وهمست:

- إني أكرههما ...أكرههما.

وغشى الأسى قلبها، وغمرتها التعاسة، لكن نوبة الحزن سرعان ما زالت فوثبت إلى النافذة، وفتحتها على مصراعيها، وللمرة الثانية هذا النهار، شاهدت فلكا. كان جالساً على الأرض وعلى ركبتيه كتاب كبير حافل بالخرائط. وحالما رآها قال وكأنه يكمل حديثاً:

- لم أعثر على مدينة باسم ماروشيكا، وإنما هناك بلاد تدعى مراكش، وجزيرة تدعى مايوركا، لقد بحثت عن بلدة أو جزيرة أو حتى قارة بهذا الاسم فلم أجد شيئا، لماذا سخرت مني يا تانيا؟

- لا تقل شيئاً يا فلكا؟ من قال إني مهتمة بكل ذلك؟

لكنه كف عن الكلام ووقف حائراً حين رأى آثار الدموع على وجهها، واذ كان فلكا بارعا في الكذب مثل براعته في الصدق، فقد ضرب الأطلس بيده وصاح :

- آه تذكرت. لقد حدثنا المدرس يوماً عن ماروشيكا. وهذا بعد كل شيء أطلس قديم وناقص. أنا واثق من وجود ماروشيكا. أعادت هذه الكذبة الصغيرة راحة البال إلى تانيا.

فقالت تحدث نفسها : "إن لي صديقاً مخلصاً لن أبدله بأي انسان إنه مستعد دوماً أن يشاركني كل شيء صغر أو كبر.." وقالت بصوت مسموع :"لم أكن أتحدث عنك يا فلكا، وإنما قصدت ولداً مزعجاً يدعى كوليا. أنا آسفة سامحني."

لكنها لم تكن في حاجة إلى طلب المغفرة، فقد سامحها حالما سمع رقة صوتها، وقال :

لا تهتمي بالأمر اذن ما دمت تعنين ولداً آخر لكن حدثيني أولا عن سبب كراهيتك له! فقالت بعد فترة صمت:

- هل ترى أن يكون للناس كبرياء يا فلكا؟

اجاب بجد وحزم:

- نعم إذا كنتِ أنت المعنية لكن ما دمنا بصدد الحديث عن كوليا فاعلمي أن قبضتي الفولاذية، ويدي التي اعتادت على استعمال أنشوطة صيد الوحوش مستعدتان لأن تكونا تحت الطلب متى ما شئت!
- ولماذا تضربه؟ إنك لا تعرفه.
- إني أعرفك أنت.

فهمت تانيا الدافع الذي حدا بفلكا إلى التهديد بقبضته. ثم تذكرت أنها هي أيضا تحسن استعمال شباك الصيد، وإصابة الهدف بالحصى. ولكم أصابت القط بحصاة قد

أحسن توجيهها. غير أن هذا الشعور الحاقد على كوليا سرعان ما تبدد، فقالت تخاطب نفسها : لابد اني خسيسة اذ أفكر بهذا الأسلوب السخيف.
وبغتة وثب فلكا ونظر وهو محرج إلى شيء ما من فوق كتفه، ثم وضع الأطلس تحت ابطه وانطلق هارباً، كانت والدتها قد عادت إلى المنزل.
جمعت تانيا شتات أفكارها وأدامت النظر في محيا والدتها. لقد بدت مختلفة عما كانت عليه دوماً. إذ زادت نحولاً ورقة. غير أن عيني تانيا ما كادتا تغرقان في عيني أمها الحانيتين حتى ذابت كل آلامها، كما تذوب حفنة ملح في البحر. ومضت تنثر القبلات على وجهها لكنها تجنبت ملامسة عينيها، كأنما خشيت ان تكدر صفاءهما وعذوبتهما ثم هتفت :

- أمي

أجابتها وهي تحتضنها:

- لقد افتقدتك كثيرا يا حبيبتي الصغيرة.

أدامت الوالدة النظر في وجه ابنتها وشعرها وقامتها. وقالت في نفسها بارتياح : لقد نفعها المخيم. ثم خفضت بصرها إلى قدمي ابنتها، فدهشت لرؤيتها عاريتين وعندئذ فقط انتبهت إلى الفوضى البادية على الغرفة. ورأت، الفراش المبعثر، والوسائد المنتشرة على الأرض، ثم وقع بصرها على الرسالة التي مازالت مفتوحة ملقاة على الفراش. وانطفأ في عيني الوالدة النور الذي خافت عليه تانيا قبل لحظات ورأت في العينين الحلوتين لهفةً وفزعاً وشيئاً لم تستطع تسميته الا بالتكلف وتصنع اللامبالاة.
وأخذت أمها تعيد ترتيب الفراش وهي صامتة، واستمر ذلك لفترة طويلة، وفي النهاية قالت برقة:

- هل قرأتها يا تانيا؟

فخفضت الفتاة رأسها .

- ينبغي اذن أن تبتهجي.

وانتظرت جواب ابنتها بنفاذ صبر. وأخيراً نطقت تانيا وقالت:

- أمي . هل ذلك الفتى أخي؟
- لا إنه ليس من أقربائك. فهو ابن أخت ناديا زوجة أبيك لكن أباك أعتنى به ورعاه اكراماً لزوجته. إنّه يعطف على كوليا لأنه يتم منذ طفولته، إن أباك رجل طيب يا تانيا وطالما حدثتك عن ذلك.

قالت تانيا: ليس كوليا أخاً لي إذن؟
رفعت الأم ذقن ابنتها المهمومة وطفقت، تقبلها مراراً.
تانيا! سوف نتحدث عن كل ذلك فيما بعد. وسوف تستقبلين، أباك في المرفأ وتعرفين منه كل شيء. لا شك أنه سيغتبط أشد الغبطة إذا وجدك في استقباله.

- وأنت يا أمي؟

أجابت أمها وهي تتجنب أن تقابل عينيها المتسائلتين:

- كلا يا تانيا. أنت أدرى بكثرة أشغالي، لن أستطيع الذهاب. واستدارت لتغادر الغرفة، لكن تانيا التصقت بها، وهمست في أذنيها: أمي، أنت الشخص الوحيد الذي أحب. وسوف أبقى معك إلى أبد. لن أذهب لاستقبال أبي!

*

لم تجد تانيا تفسيراً لبقاء زهورها على قيد الحياة حتى يوم وصول أبيها إلى بلدتها. أكان المسؤول عن ذلك الماء البارد الذي سال من البرميل و سقاها يوم غرستها؟ أم أن الزنابق شأنها شأن كثير من زهور الشمال عديمة العطر تتعلق بالحياة وتكافح بعناد من أجل البقاء؟ على أي حال فإن تانيا اعتزمت على الاحتفاظ بهذه الأزهار لنفسها و ألا تهديها إلى أحد.

كان الوقت فجراً. وها هي تقف في الحديقة عند بوابتها، ترقب برج الساعة الخشبي المسلط على المدينة الشمالية عساها ترى العلم يخفق مرفرفاً فوق البرج لتستدل به على وصول سفينة من الخارج. غير أنها لم تر للعلم أثراً. هل تأخرت السفينة؟ ولكن ما بالها تشغل نفسها بالعلم والسفينة؟ إنها لا تنوي أن تستقبل أباها في الميناء. ولا بأس أن تكون قد ارتدت أفضل ملابسها وعنيت بربط شعرها بألطف شريط لأنها في أول أيام السنة الدراسية الجديدة. ويوم الافتتاح هو يوم عيد لدى جميع الطلبة. لكن الدوام لا يبدأ قبل الصباح لماذا تركت فراشها في هذه الساعة المبكرة إذن؟

لكن هل سيصل المركب حقا؟ أم أنها سفينة أشباح لا صلة لها بالزمان والمكان. ومن يدري لعلها في هذه الساعة تبحر في نهر آخر وتحت سماء ثانية.

كان الوقت لا يزال مبكرا. ومع ذلك فإنّ تانيا كانت تسمع وقع خطى في الشارع وهي تسرع باتجاه الميناء. هل كان أحدهم ذاهباً للقاء أخت أو ابن ؟ أم كانت تلك خطى فلكا الباحث عن الطيور المطوقة. يحاول اصطيادها للمرة الأخيرة قبل ابتداء الدراسة.

وجلست تانيا عند البوابة تصغي بأشد انتباه، بينما كان الأعشاب تحت قدميها. والأغصان المتهدلة فوق رأسها تغط في نوم هنيء عميق، بعد فترة بلغ أذنيها صوت بوق آت من مسافة بعيدة. كان ذلك صفير السفينة القادمة .

فتحت تانيا باب الحديقة وخرجت. وبعد لحظات عادت، ووقفت عند أغصان الزنابق مترددة أليس من الأنسب ان تقطف الأزهار، وتقدمها إلى أبيها بمناسبة اللقاء؟ لابد أنه سيغتبط ويسر بهذا الشعور اللطيف. ومدت يدها وقطفت كل ما في الحديقة من أزهار السوسن والزنبق، ونسقته في باقة حلوة. ثم استدعت "النمر " وسارت نحو الميناء.

كانت الحياة في البلدة نائمة. لم يستيقظ غير برج الساعة الذي بدأ العلم يرفرف فوقه عالياً مبشراً بقدوم السفينة. أما النفر المعدود من المارة الذين التقت بهم في الطريق، فقد كانوا مثلها يقصدون المرفأ.

في أعلى المنحدر وقفت تانيا تتأمل النهر. ما أصفى ماءه ! وما أشد لمعانه في ذلك الإطار الأخضر من الجبال التي تكتنفه! بل ما أوسعه ! فحتى ظلال تلك الجبال الشاهقة تعجز عن ملاحقة امتداده، إنه النهر الذي طالما ناداها لتبحر فيه نحو الشواطئ البعيدة التي يعيش فيها "الدينغو ".

دخلت السفينة الضخمة المرفأ، فترنحت لهديرها أشجار السدر على الجبال، ولكنها لم تبد وسط النهر الكبير- إلا لطخة صغيرة تكاد تضيع بين سطوحه البراقة الواسعة.

نزلت تانيا من المنحدر مسرعة. فقد كانت السفينة تدخل مرساها منحرفة نحو الرصيف المزدحم، حيث تبعثرت البراميل مثلما تتبعثر أوراق اللعب على المنضدة بين أيدي مردة جبارين.

وبدأ المغادرون للسفينة يلوحون بمناديلهم للمستقبلين. ترى هل كان فيهم من يحييها؟ وشحب وجهها، وبذلت جهدا لترفع يدها وتجبر نفسها على رد التحية. ولكن ما أسخف ذلك ! كيف تتوقع أن تميز أباها بن هذا الجمع الكبير من الناس وهي لم تره في حياتها بل كيف سيميزها هو؟ لقد طارت إلى الرصيف دون أن تفكر في ذلك. لماذا استجابت لرغبات قلبها الجموح؟ كان قلبها الآن يخفق بعنف، دون أن يعرف ما سيفعل لاحقاً. هل يتوقف عن الخفقان نهائيا أم يبقى يخفق أسرع وأسرع و أسرع!

ووقفت عند البراميل تقبض على الزهور بكلتا يديها، و النمر يحاول عبثاً التخفيف من تعاستها، بلعق قدميها . كان الناس يمرون بها دون أن تستطيع التعرف على الأسرة التي جاءت لتستقبلها. هل هم هؤلاء الثلاثة يا ترى؟ الرجل الذي يضع على رأسه قبعة زاهية من اللباد؟ والمرأة العجوز، والصبي النحيل كريه المنظر؟ لكن لا! فقد اجتازوها دون أن يلتفتوا نحوها ولا بد أنهم لا يتوقعون أن يستقبلهم أحد في المرفأ.

أم أنهم هؤلاء الثلاثة؟ الرجل السمين المرتدي للقبعة السميكة، مع المرأة الطويلة البسيطة المظهر والولد السمين الأثقل من صاحبه النحيل الذي مر قبل لحظة؟ نعم إنهم هم بالتأكيد، وتقدمت عدة خطوات... لكن الرجل نظر إليها ببرود، وأشار الولد إلى ورودها متسائلاً: هل تبيعينها؟

وارتعدت تانيا من شدة الحنق فتحركت مبتعدة، وعادت إلى البراميل تختفي خلفها إلى أن خلا الرصيف ولم تعد تسمع وقع خطى الناس، ترى ماذا كانت تنتظر. إنهم ببساطة لم يأتوا.

خرجت تانيا من مكمنها بين البراميل. كان نوتية السفينة قد غادروا الرصيف وذهبوا إلى البلدة. ورأت رجالاً يحملون نقالة مستشفى فسارت معهم، كان على النقالة ولد راقد وقد غطيت رجلاه ببطانية من الصوف، وتورد وجهه بتأثير الحمى، لكنه لم يفقد الوعي، ولخوفه من السقوط أمسك بجانبي النقالة بكل أصابع يديه، وعلى وجهه ابتسامة مرتبكة.

سألت تانيا أحد الحمالين: ما شأنه؟

فأجابها باختصار:

لقد اعتل على ظهر السفينة. إنه مصاب بالملاريا.

ولحظ الفتى تانيا وهي تسير بجانبه، فبسط جسمه فوق النقالة وحاول أن يطرد خوفه. وركز بصره على الفتاة الماشية . ثم سألها فجأة: لقد كنت تبكين. أليس كذلك؟

غطت تانيا فمها بباقة الزهور التي تحملها، وكأنها تستنشق شذى لا يريد أن يعبق منها. و ماذا يعرف هذا الفتى العليل عن زهور الشمال؟

لكن الفتى أعاد سؤاله بثبات: لقد كنت تبكين...

وضعت تانيا زهورها على النقالة بجانبه وقالت:

أوه كلا كلا! لم أكن أبكي. كل ما هنالك أن ولدا سميناً رمى حفنة من الرمل في عيني!

وحين جاء المسؤول عن سقالة المركب في النهاية ليرفعها، لم ير في المكان أحداً اللهم إلا فتاة يافعة ترتقي سفح الجبل بحزن وأسى.

*

يعتبر يوم افتتاح السنة الدراسية من المناسبات السعيدة لدى الطلبة، لكنه كان هذا العام يوماً عسيراً على تانيا. لقد دخلت ساحة المدرسة وحدها بعد قرع الجرس بفترة، وفتحت الباب، لكن الممشى كان خالياً هادئاً مثل الساحة. هل تأخرت يا ترى؟ وأجابها الحارس قائلا: كلا فإنّ المدرسين لم يدخلوا الصفوف بعد لكن يحسن بك أن تسرعي.

غير أنها لم تملك القدرة على الركض، لذلك مضت تقطع الدهليز الطويل الذي أجلي سطحه فبات صقيلاً لامعاً، ببطء شديد، وكأنها تتسلق جبلاً وعلى الجدران فوق رأسها عُلقت اللافتات ونفذت أشعة الشمس من النوافذ العشر العريضة فتألقت تحتها، العبارات التالية:

**"المدرسة ترحب بكم. السنة الدراسية الجديدة بدأت. جدوا واجتهدوا "**

ووقفت تانيا أخيرا عند باب صفها الجديد، وكان موصداً، وبلغ سمعها تلك الجلبة المحببة التي تذكرها باصطحاب الأمواج وحفيف أوراق الشجر، والتي اعتادت عليها منذ طفولتها المبكرة، فأعانتها الآن على جمع شتات أفكارها وقالت تخاطب نفسها، وكأنها تحاول مصالحتها بعد خصام: أوه لا بأس عليك، لننسَ كل ذلك، ثم دفعت الباب وفتحته، عند هذا علت ضجة زميلاتها وزملائها ترحيباً بمقدمها فقابلت هتافهم بابتسامة جذلة. كانت تحس بشعور إنسان تخلص تواً من الجليد، لكن عينيه مازالتا في حالة سيئة من أثر البرد، فهو لا يرى الأشياء المحيطة به بوضوح، وإنما يبتسم في وجوه المرحبين به مبتهجاً بعبارات التودد التي يعرف أنها ستنهال عليه. وصاح الجميع – عدا فلكا الذي جلس حزيناً كاسف البال:

- تانيا .. تعالي إلى هذه الرحلة، و اجلسي معنا يا تانيا .

قر رأي تانيا أن تجلس بجانب زينيا وكان فلكا في الرحلة التي تليها وما كادت تنحشر في مقعدها حتى دخلت مدرسة اللغة الروسية الكسندرا ايفانوفا.

سارت المُدرسة إلى المنصة، لكنها عادت فعدلت عن اعتلائها، وقالت لنفسها: "إذا كان في امكان أربعة الواح مطلية بالأوان أن ترفع شخصا فوق الآخرين، فان عالمنا هذا لا يستحق أن نحيا فيه"، ودارت حول المنصة، واقتربت من تلامذتها حتى لا يقوم بينها وبينهم أي حاجز.

كانت في عنفوان الصبا، تومض بشرتها ببريق الشباب ولعينيها نظرة صافية وديعة تجبر حتى أكثر الطلبة شقاوة على الانتباه والاصغاء إلى محاضرتها ومن

الغريب أن التلاميذ الذين لا تفوتهم قلة تجارب مدرسيهم لم ينجحوا يوماً أن يسخروا من ألكسندرا ايفانوفا، وتحدثت بنبرات عميقة. كأن صوتها مؤثراً مثل نظرتها:

- أيها الأولاد والبنات. في هذا اليوم تتاح لنا جميعاً فرصة عظيمة هي افتتاح العام الدراسي الجديد. ويسرني أن أكون بينكم مرة أخرى كما يبهجني أن أكون مرشدة هذا الصف كما كنت لعدة سنين مضت، لقد كبرتم خلال هذه الفترة، كما تقدمت أنا في السن أيضا. ولكننا سعينا على الدوام لأن نعمل على أفضل صورة ...

وكان المؤمل أن تستمر المدرسة في مثل هذا الحديث الذي يقال في بداية العام الجديد، لولا دخول تلميذين جديدين إلى الصف. كانا نفس الولدين اللذين رأتهما تانيا في الميناء فجر هذا اليوم.

صوب الطلبة نظرات الفضول نحو القادمين الجديدين، ولكن أياً من الأربعين تلميذا وتلميذة. لم يشارك تانيا في شدة اهتمامها بهما. فسوف تعرف الآن أيهما المسؤول عن تعاستها كلها. ولابد أن أحدهما كان كوليا. وسألت الكسندرا ايفانوفنا التلميذين عن اسميهما فأجاب السمين: كود يلو كود ليفسكي.

فيما أجاب النحيل: بورشج.

تنفست تانيا الصعداء. وقالت لنفسها "واذن فانهم لم يأتوا. حسن علينا أن ننسى المسألة في الوقت الحاضر".

لم يكن الضحك الذي دوى في الصف عند سماع الطلبة بالاسم الغريب لكل من التلميذين الجديدين بداية حسنة للدرس. لكن الكساندرا ايفانوفنا قالت:

- إلى العمل أيها الأولاد والبنات. آمل أن لا تكون العطلة قد انستكم ما درستموه سابقا.

وهنا تنهد فلكا بصوت مسموع جعل المُدرسة تحدق فيه متسائلة، إلا أن نظرتها لم تكن جافية، اذ كان قصدها أن يشعر الجميع في هذا اليوم السعيد بالثقة والاطمئنان والراحة. وقالت تسأله :

- لماذا تحسرت يا فلكا؟
- لقد استيقظتُ فجر اليوم لأكتب رسالة لصديقي، لكني عجزت عن اتمامها لأني لم أعرف طريقة تنقيط الجملة التالية: أين كنت ذاهباً عند طلوع الشمس هذا اليوم يا صديقي العزيز؟
- من المؤسف أن تنسى يا فلكا.

لكن تانيا كانت مطرقة الرأس. فخيل إلى المُدرسة أنها لا تريد الإجابة.

- تانيا سانيفا ! آمل ألا تكوني قد نسيتِ تنقيط مثل هذه العبارة أعيدي القاعدة رجاء.

حدثت تانيا نفسها: لماذا كل هذا؟ انه يتحدث عني. لماذا يقسو الجميع هكذا؟ حتى فلكا يحاول تذكيري بالأمور التي أبذل جهدي كي أنساها.

ورفعت صوتها تجيب المُدرسة:

- إن الجملة التي تشتمل على خطاب. تحتاج إلى فاصلة أو علامة تعجب.

قالت المُدرسة تخاطب فلكا:

- أترى؟ إن تانيا تتذكر القاعدة جيداً. اذهب يا فلكا إلى اللوحة واكتب عليها عبارة مماثلة.

ذهب فلكا إلى اللوحة وحمل قطعة الطباشير. وكانت تانيا قد عادت إلى إطراقها وغطت جزءاً من وجهها بيدها. لكن ذلك لم يمنع فلكا من ملاحظة كآبتها. وتمنى ألا تكون دعابته الصغيرة مسؤولة عن ذلك. قال محدثاً نفسه: ما شأنها يا ترى؟ ثم شخبط على اللوحة ما يلي حرفياً:

- افرح واستبشر أيها الصدق!

رفعت المُدرسة يدها بقنوط وقالت موبخه:

- فلكا فلكا! لقد نسيت كل شيء، كل شيء على الإطلاق. وما الفائدة من تعلمك استعمال الفواصل، اذا كنت تكتب كلمة الصديق من دون ياء؟

قال فلكا من دون خجل:

- إنها فعل، أليس كذلك؟!

صاحت المُدرسة باستغراب :

- فعل؟ ولماذا يكون الصديق فعلاً؟

أجاب فلكا بعناد :

- لأني واثق من ذلك " يا صديقي، ماذا تفعل يا صديقي؟" أترين؟ ذلك هو الحدث!

عند هذا انفجر الجميع ضاحكين، فرفعت تانيا رأسها، وحين أعاد فلكا النظر في وجهها، وجدها تضحك ضحكتها الحلوة. وبصوت أعلى من الجميع. عندئذ ضحك في سره وبدأ يزيل آثار الطباشير من أصابعه، لقد انجلى الهمُّ عن فؤاده.

غير أن الكسندرا إيفانوفتا لم تستطع أن تضحك، انما استندت إلى الجدار وراحت تنظر في وجه فلكا بحيرة. كيف يتاح لتلميذ سريع الخاطر كثير الحيلة أن يسر كل هذا السرور بغلطة فاحشة مثل غلطته هذه؟ لابد أن التلاميذ يخفون عنها أمراً. وهي التي ظنت أنها تعرفهم جيداً.

*

- 6 -

يسعد تانيا أن تجد والدتها بعد انتهاء أعمالها بضع دقائق من الوقت تخرج فيه إلى الحديقة، تجلس معها عند أحواض الزهور على الأعشاب وعلى الرغم من ذبول عشب الخريف وعري أحواض الزهر. فإنّ كل شيء يبدو رائعاً. اذ ترقد تانيا بجانب والدتها واضعة رأسها على حجرها. وفي الحال تجد العشب زاهياً والسماء متألقة. وتلبث الاثنتان كذلك مدة تتطلعان بسكون إلى السماء حيت تحلق النسور بارتفاع شاهق فوق مجرى النهر بحثاً عن الأسماك، ثم تثبت في أماكنها، ولا تتحرك إلا حين تزعجها طائرة عابرة، على أن هدير هذا الطائرة تضعفه الغابة، فلا يكاد يصل إلى آذان تانيا ووالدتها إلا واهناً، فتصغي إليه وهو يتلاشى شيئاً فشيئاً دون أن تتفوها بحرفٍ. لكن والدة تانيا لم تفعل ذلك اليوم. اذ قالت حالما انتهى دوي الطائرة: وهكذا فإنهم لم يأتوا. ما أبعد المسافة بيننا وبينهم!

ولم تقل تانيا شيئا، فيما قالت والدتها وهي تشير إلى أحواض الورود حيث لم يبق إلا الجذور:

ماذا حدث لأزهار السوسن التي غرستها. لقد كان حوضها بديعاً، هل نقرتها جميعا تلك البطة الشرهة؟

قالت تانيا دون أن تتحرك: لقد طردتها بنفسي هذا الصباح.

قالت الأم مواصلة الحديث: إن الزنابق المائية لا تنمو قرب موسكو. وكان أبوك يحبها. كم أملت أن تكوني قادرة على تنسيق باقة من أجله.

لكن تانيا لبثت صامتة، فقالت الوالدة مضيفة: إنه رجل كريم.

قامت تانيا بغتة، لكنها عادت فرقدت، ووضعت رأسها على حجر أمها التي قالت:

- ماذا كنت تريدين أن تقولي؟
- إذا كان كريماً إلى هذا الحد، فلماذا هجرنا؟

تحركت والدتها بسرعة وكان مرفق يدها قد ضربته حصاة حادة. فأحست تانيا بقسوة ملاحظتها، وجثت على ركبتيها وغطت وجه والدتها وثوبها بالقبلات. وفكرت: كم كانتا سعيدتين قبل لحظات، وهما ترقدان بهدوء على العشب الجاف في حديقتهما الصغيرة التي لا يغطيها غير السماء. كيف تستطيع أن تحب أباها، اذا كان مجرد ذكره يسلبهما الهناء؟ وقالت لوالدتها:

- أمي لن أعود إلى مثل هذا الحديث ثانية. أبداً. انني مسرورة لتأخر وصولهم، ونحن سعيدتان معاً، أليس كذلك؟ أما عن الزهور فسوف أزرع غيرها لأني أعرف المكان الذي تنبت فيه في الغابة، وسوف أحصل على البذور، وستكون حديقتنا أحلى وأبدع.

مضت تانيا في ثرثرتها، وهي لا تكاد تعرف ما تقول، فلا عجب ألا تصل أذنها فرقعة سقاطة الباب، وألا تسمع طلب والدتها المتكرر بأن تقوم إلى الباب وتفتحها. وقالت أمها للمرة الثالثة:

- هيا يا تانيا افتحي الباب، إن شخصاً يريد أن يدخل. ربما كانوا محتاجين إليّ في المستشفى.

نهضت تانيا أخيراً، واسرعت إلى الباب الخارجية حين سمعت وقع الخطى في الخارج، لكنها كرهت أن تفتحها، لذلك صاحت حانقة: ماذا تريد؟ أأنت مريض، محتاج إلى طبيب؟

لكنها رأت رجلاً طويل القامة. قوي البنية يفيض نشاطاً، يرتدي معطف كولونيل، وحذاء عسكرياً. كان ينظر إليها بابتسامة سعيدة دون أن يقول شيئا. كم كان مسلكه غريباً، وفجأة سمعت من أمها الواقفة خلفها صرخة خافتة، وأغمضت تانيا عينيها وتراجعت إلى الوراء لتستند إلى الباب الكبيرة، والدها! كان ذلك أبوها! وقد عبر فوق لوح مطروح على الأرض وتقدم إلى أمام، وكأنه يحاول الإنحناء نحو والدتها لتقبيلها، لكن أمها تراجعت إلى الخلف، وقدمت له يدها فأخذها بين يديه، وبيدها الأخرى أشارت إلى تانيا. فاستدار بخفة مما جعل حزامه الجلدي يصر وطوقه المعدني يطقطق، وبسط يديه الكبيرتين إلى تانيا. التي خطت نحوه. كانت شاحبة. ويبدو علها الخوف. فاحتضنها ونثر القبلات على جبينها. فامتلأت خياشيمها برائحة الجوخ والجلد وقال:

- كم كبرتِ! كان عليّ أن أقدم زهوراً. لكنني جلبت حلوى بدلاً عنها. ووضع يده في جيبه ليخرج العلبة. لكنها كانت لكبرها قد انحشرت في البطانة، فاضطر إلى تمزيق قماش البطانة قبل استخلاصها، وتورد وجهه من الارتباك وتمتم ببضع كلمات غير مفهومة. أما تانيا فقد انتظرت وهي تزداد شحوباً كل لحظة. ومضت تراقب وجهه الذي يتصبب عرقاً مثل طفل صغير. وتتساءل هل هو رجل طيب أم لا؟

وأخيرا استخرج العلبة. وقدمها إلى تانيا فأخذتها واذ لم تعرف ماذا تصنع بها. وضعتها على المزلجة القديمة بجانب برميل الماء، وفي السكون الذي أعقب ذلك بدت قطرات الماء وهي تتساقط فوق العلبة شبيهة بقصف الرعد، نظرت والدتها

إلى العلبة مفكرة، ثم هزت رأسها ودخلت بها إلى المنزل. بقيت تانيا في الحديقة، فوضع والدها ذراعيه حولها وقبّلها، وبدأ يتحدث إليها لأول مرة. كان منفعلاً وعلى محياه ابتسامة متوترة مشدودة:

- لقد أسفنا لعدم حضورك للميناء. اذ املنا – ناديا وأنا – أن نراك لكن حادثة صغيرة أخرتنا في المركب. إذ أصيب كوليا بنوبة مالاريا، وكان علينا أن ننتظر الممرضين ليحملوه إلى الشاطئ. وهل يمكنك تصديق ما حدث. لقد تقدمت فتاة من كوليا وأهدته باقة من الزنابق المائية. التي مرت عليّ سنون طويلة دون أن أراها. ووضعتها على النقالة بجانبه. لقد تمنى أن تكوني أنت تلك الفتاة. لكنك لم تكوني هناك.

رفعت تانيا يدها إلى صدرها وبدأت تعصره، كأنما تريد ايقاف الدم الذي صعد إلى وجهها حتى صار بلون القرمز. وتراجعت إلى الخلف فسألها ابوها:

- ما الأمر يا تانيا؟
- لا ترفع صوتك يا أبي فاني أسمعك جيداً.

تحيرت تانيا للسكوت الذي ران على الحديقة بعد ذلك. فقد قطع والدها حديثه فجأة. وظهرت على وجهه المتورد نظرة عابسة، وفارقته ابتسامته المرحة. لكن تعبير الحنان لم يغادر عينيه، وسعل وبدا سعاله مألوفاً بصورة غريبة لدى تانيا. فهي أيضا تسعل بالطريقة ذاتها حين يمر بها الحزن كما تمر لفحة الهواء البارد. أدام والدها النظر إليها وضغط على كتفها وقال: إني أعلم بالضغينة التي في قلبك ضدي يا تانيا لكننا سنكون أصدقاء مع هذا. أليس كذلك؟

قالت بكل ما يمكنها ان تتكفله من لهجة رسمية:

- ربما كنت محتاجاً إلى شيء من الشاي؟

قال أبوها وهو يضغط على كتفها مرة أخرى:

- آه ! تلك هي ابنتي اذن.

فهمت تانيا العتاب الخفي في كلمات والدها. فترقرقت الدموع في عينيها وقالت بلهجة أرق:

- تعال وأشرب الشاي معنا يا بابا! أنت تعلم أني لم أعتد عليك يا بابا.

عند هذا رفع يده من فوق كتفها، ومس خدها. وقال بصوت طبيعي: نعم أنت على حق، أن هذه الأمور تصبح عسيرة على ابنة الخامسة عشر. لكننا مع ذلك سنكون أصدقاء. والآن لنذهب ونشرب الشاي. وللمرة الأولى سُمعت على المدخل الخشبي لمنزل تانيا خطوات ثقيلة غير مألوفة لرجل هو والدها.

*

لما تساءل أصدقاء تانيا عما إذا كان الطالب الجديد كوليا سابانيف من أقاربها: ابن عمها مثلاً، أجابت بعضهم بنعم. وقالت لآخرين: لا! واذ لم يكن أحد منهم مهتما بالأمر اهتماماً جدياً. فإنّ المسألة توقفت عند هذا الحد. أما فلكا فإن الوقت الطويل الذي قضاه في البحث عن بلدة تدعى ماروشيكا، جعله يكف عن توجيه أي سؤال حول هذا الموضوع. على أنّه جلس - داخل الصف – خلف تانيا مباشرة. وكان ذلك يسهل عليه مراقبة الجزء الخلفي من رأسها كل الوقت. ذلك أن ظهر الرأس يمكنه أن يعطي معلومات كثيرة للمراقب اليقظ. فهو مرة بارد صلب مثل الصخرة التي أعتاد فلكا أن يستنبط منها النار في الغابة. وفي أخرى هو رقيق لطيف مثل ورقة عشب متوحدة.

أما رأس تانيا فقد كان قاسياً ورقيقاً على التناوب. الا أن أظهر ما كان يعبر عنه هو إصرار صاحبته على عدم الانتباه إلى ما يجري خلفها على الرحلتين اللتين يجلس فيهما فلكا وكوليا. ترى أيهما كان المقصود باستخفافها ذاك، متعمداً كان أو غير متعمد؟ أما عن فلكا فقد كان واثقاً بأنه ليس المقصود بازدرائها، وذلك لنظره للأشياء دائما من جانبها الحسن. لكنه من الناحية الثانية وجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأن تانيا كانت تتجنى على كوليا حين وصفته بالتكبر. ربما كان كوليا رقيقاً بطبعه. فقد كانت يداه نحيلتين، ووجهه شاحباً، لكنه بالتأكيد لم يكن مزهواً بنفسه. فحين عرض فلكا على كوليا أن يتذوق ما يسمونه في المدرسة بالكبريت الأصفر الذي يعلكه جميع الطلبة اكتفى بالسؤال عن ماهيته، فأجاب: إنه صمغ شجرة الشربين. وتستطيع أن تحصل على شيء منه من الرجل الصيني الذي يبيع الصمغ في ركن الشارع. سوف يعطيك قطعة كبيرة بخمسين كوبيكا.

فسأله كوليا:

- وما المقصود بالصمغ؟

فأجابه فلكا منزعجا: آهووو أيها الأخ. تريد أن تعرف كل شيء دفعة واحدة.

غير أن كوليا لم يبد أي استياء من لهجة زميله وإنما قال: طيب سوف أعرف ذلك فيما بعد. لكنكم أيها الاولاد غريبو الطباع قليلاً، فإني لم أر أحد قبل هذا يعلك الصمغ.

ومع ذلك فقد ذهب وابتاع كمية كبيرة من ذلك الصمغ، وسرعان ما بدا يعلك منه بذلك الأسلوب الذي يعرب به الأولاد عن فرحهم به. ثم قدم شيء منه لفلكا ولتانيا أيضاً. فاعترفت الفتاة بينها وبين نفسها بسوء طباعها. وأجبرت نفسها على الابتسام له مظهرةً أسنانها البيض كالثلج.

قال كوليا: لابد أن يكون لهذا الصمغ الفضل الأكبر في بياض أسنانكم جميعاً. وأظنه يساعد على تنظيفها. إنه مدهش.

لكنها ثارت فجأة وقالت: المدهش أن تتركني وشأني !

ابتسم كوليا، لكنه لم يرد عليها في الحال، وإنما نظر إليها بعينين شفافتين براقتين كالثلج فلم يفتها التحدي الظاهر فيهما، ثم قال مردداً بهدوء: نعم إنه مدهش...أعني الصمغ.

لم تستطع تانيا أن تفسر ما جرى بينها وبين كوليا، هل كان ذلك خصاماً حقيقياً؟ لكن العداء الذي استحكم بينهما يعود فعلاً إلى تلك اللحظة. ومن يومها لم يعد ذلك الفتى العليل يغيب عن ذهنها.

كانت تانيا في أيام الأحاد تتغذى على مائدة أبيها في داره. واعتادت أن تنطلق من الغابة، التي تقوم خلف منزلها. ثم تخرج إلى الشارع. وهذا الشارع ملتوٍ ومحاذٍ لشاطئ النهر. وهو ينعطف مرةً إلى اليمين ومرةً إلى اليسار وكأنه يرمي نظرة سريعة إلى النهر الملتوي تحته دافعا الجبال جانباً.

وتتهادى تانيا في مشيتها متبعةً دورة الشارع لتستمتع بمنظر النهر. وفي الايام الهادئة يمكنها ان تسمع هسيس كتل الطين التي تتفتت من الجرف وتنزلق في الماء. ويشارك "النمر" سيدته في ذلك. فينصب إحدى أذنيه ليستمع جيداً، وهو يتبعها إلى كل مكان. وفي مدة نصف ساعة يصل الاثنان إلى دار والدها. حيث تتغطى الأرصفة بالحصى المرشوش بالجص. لكن العشب يبرز حتى من فتحات الجص، وقد ابيضت رؤوس أوراقه.

كان المكان هادئاً جداً. والباب الزجاجي مفتوح دائمان فتدخل تانيا تاركة "النمر" عند الباب. وكم تمنت أن تنعكس الآية فتكون هي التي تبقى خارج المنزل لكن هذا الشعور لا يعود على أية حال لنوع المعاملة التي كانت تلقاها من أصحاب الدار. اذ كانوا معها - جميعاً – مثال اللطف. فناديا تستقبلها عند الباب. وهي امرأة وديعة غير متصنعة وذات وجه جميل. واذ ترى تانيا. تربت على كتفها أو تقبل رأسها. وتقول دائما الكلمات ذاتها: آه هي ذي تانيا!

لكن قلب تانيا كان يفيض بالشك تجاه هذه المرأة على الرغم من نعومة صوتها ورقته وكانت تحدث نفسها " لماذا تنظر إلى أبي حين تقبلني وكأنها تقول له: انظر كم أنا لطيفة مع ابنتك، ليس هناك ما يمكن أن تلومني أنت أو هي من أجله."

هذه الفكرة وحدها كانت كافية لأن تلصق لسان تانيا بحلقها فلا يتحرك. وتجعل عينيها خارجتين عن ارادتها فلا تستطيع اجبارهما على النظر في وجه أبيها. ولم تكن تستعيد طمأنينتها إلا حيت تدنو من أبيها وتمسك بيده، وعند ذلك فقد يمكنها أن تقول لكوليا: هالو!

فيرد عليها بمودة: هالو تانيا!

لكنه لا يفعل ذلك أبداً قبل أن ترمي اليه بالتحية. ولم يكن أبوها يقول شيئاً. وإنما يمس خدها برفق ويأخذها مباشرة إلى المائدة. كان الغداء عندهم مبهجاً. فهم يأكلون البطاطا ولحم الغزال الذين يشترونه من الصيادين المتجولين. ويتسابق الجميع للحصول على أفضل قطعة من اللحم. ويضحك الزوجان من كوليا ويزجرانه، حين يحشو فمه ببطاطه كاملة. وفي بعض الأحيان يلكمه على انفه. فيتورم قليلاً. فيعبس كوليا ويقول: بابا! أنا لم أعد طفلا وأتمنى لو كففت عن هذا السخف!

فيحييه الوالد: ذلك حق لست طفلاً، وإنما أنت ولد طائش كبير. لقد كبرتم كلكم كثيراً، والانسان لا يدري كيف يعاملكم. لكننا سنرى ما تفعلونه حين نبدأ بأكل فطيرة الكرز. يقول ذلك ويدنو من تانيا التي تحدث نفسها "وما نفع فطيرة الكرز وأنا أعلم أنه لا يحبني كما يحب كوليا ؟! و إنه لن ينعتني بالطيش ولن يلكمني على الأنف. ولن يخطف عني قطعة اللحم حين أكون شرهة، كما أني لن أتجاسر على نعته بالسخف، مثلما يقول له ذلك المنافق التعس الصغير. هل يتصورون أنني أرتشي بفطيرة الكرز؟!

وبالتدريج بدء قلبها يمتلئ ضيقاً وشعوراً بالأذى. وعاد اليها احساسها القديم المعادي لأبيها، على الرغم من انجذابها الحقيقي لهذه الأسرة. فلقد اعتادت على صوت ناديا الذي يملأ أرجاء المنزل. وأعجبت بقامتها الرشيقة وبوجهها اللطيف. وأحبت الحنان الذي يطل من عينيها كلما نظرت اليها. كذلك كانت قد اعتادت على هيئة أبيها الضخمة، وعلى حزامه الجلدي السميك الملقى دائما على الأريكة. بل إنها أحبت حتى كوليا، أحبته وكرهته في آن واحد. كان دائما شديد الهدوء، وفي عينيه الصافيتين تتوارى أبداً نظرة عناد وتحد ولم يكن ينسى أن يترك عظمة للنمر. أما عن شعوره نحوها فإنه لم يكن يلقي لها بالاً. أو هكذا خيل إليها. وذلك بالرغم من زمالتهما في المدرسة ولعبهما معا في بيت أبيها. إنه لا يزعج نفسه بالتفكير فيها، ولو لدقيقة واحدة في اليوم كله، وإن فكر فيها فلكي يكرهها كما تكرهه! لماذا اذن وافقت على مرافقته في الذهاب للصيد، وارشاده إلى المنطقة التي يجدان فيها السمك العضاض؟

*

تحب تانيا النجوم، نجوم السحر ونجوم المساء، نجزم الصيف الكبيرة التي تضطرم قريبة من الأرض. ونجوم الخريف النائية الباهتة التي لا يحصى لها عدد. وحين تخرج – هي وفلكا – يكون من المبهج التمشي عبر المدينة الساكنة نحو النهر، والتحديق في الماء الراكد الهادئ. والمملوء بالنجوم مثل السماء. ومن الممتع الجلوس عند الضفة. وإلقاء خيط الصيد في الماء وانتظار السمكة حتى تعضه لاسيما وأنت عالم بأنك لم تخسر دقيقة واحدة من الوقت المخصص للصيد.

في هذه الساعة يكون الفجر بعيداً، أمامك زمن طويل قبل أن تنفذ الشمس بين ضباب النهر، وفي أثناء ذلك يمكن لأفكارك أن تهيم أنى شاءت. يمكنك مثلاً أن تفكر في السنجاب المخطط وماذا يصنع في تلك اللحظة، أو أن تتساءل عما إذا كان النمر ينام، أو يشعر بالبرد في هذه الساعات المبكرة في الصباح.

إن أفضل ساعات الليل هي تلك التي تسبق الفجر. لكن تانيا حين استيقظت هذه المرة، لم يكن في السماء سوى بضع نجمات، وفكرت: "لا يبدو يوماً ملائماً للصيد، لأنّ كوليا سيرافقنا " وفي هذه اللحظة نقر أحدهم على نافذتها مرتين.

ارتدت ثيابها في الظلام ووضعت الشال على كتفيها، ثم فتحت النافذة ووثبت إلى الحديقة. فوجدت فلكا أمامها. كان في عينيه نظرة متألقة بدت في شحوب الفجر شديدة الغرابة. وعلى كتفه تدلت قصبة الصيد. قالت: لماذا تأخرت؟ ألم تستخرج الديدان من التراب مساء أمس؟

أجابها بصوت مبحوح: نجرب أن نستخرجها من المدينة! وعندنا وقت كاف، وسوف نصل في وقت ملائم.

قالت تانيا مؤكدة: نعم ليس من السهل العثور على الديدان. و الآن .. فلنذهب، ما الذي تنتظره؟

قال فلكا: وكوليا؟

قطبت تانيا في الظلام، وكأنها نسيت كوليا تمام النسيان، بل كأنه لم يكن أول من خطر على بالها، حين استيقظت قبيل الفجر وأطلت من النافذة لتتطلع إلى النجوم.

- سوف ننتظره في الشارع الفرعي قرب رصيف المرفأ.

قالت ذلك وصفرت للنمر صفيراً خافتاً. لكن الكلب لم يتحرك من مكانه تحت المدخل المسقف بل اكتفى بمد مخالبه، والنظر في وجه سيدته وكأنه يقول: " لا لا!

لا تتوقعي مني أن أذهب معك. لقد صاحبتك مرات ومرات في الصيف عند ذهابك للصيد، وفي الشتاء عند خروجك للتزحلق بل لقد كنت أحمل لك قبقاب التولج بين أسناني أما الأن فإني لم أعد قادراً على مثل تلك المهمات. ولست أتحمل أن تجريني خارج المنزل في مثل هذه الساعة غير المعقولة من الفجر! "

فهمت تانيا، فقالت لكلبها: حسن، ابق إذا شئت. لكن ربما ارادت القطة ان تصاحبها.

- قوزاق!

قامت القطة وتبعت تانيا مصطحبةً معها صغارها جميعاً! فسألها فلكا: وما حاجتنا إلى القطة؟

لا تهتم لذلك يا فلكا، إنها تعرف - مثلنا – سبب ذهابنا إلى النهر.

وهكذا مضوا يقتحمون عمق الفجر كما تقتحم غابة سحرية نبعت فجأة أمام العيون. كانت الأشجار في البستان القريب تشبه حزمة من دخان، أما الدخان الصاعد من المداخن فقد تشكل على هيئة شجيرات عجيبة ونباتات خيالية.

وعند ركن الشارع حيث يبدأ انحدار الطريق، توقفوا لينتظروا كوليا. وطال الانتظار. وبدأ كوليا ينفخ في يديه، بعد أن استخرج الديدان من الأرض الباردة. أما تانيا فقد مضت تحدق أمامها صامتة، لكن جسدها المرتعد الصغير، ورأسها المكشوف، وشعرها الناعم الذي جعده البرد، كل ذلك كان يبدو وكأنه ينطق قائلاً :

- انظروا. ذلك هو صنف كوليا!

وأخيراً ظهر كوليا من الشارع الفرعي، كان يسير متمهلاً، وحين وصل ضرب بقدميه على الأرض، وانزل قصبة الصيد من كتفه وقال :

- انني شديد الأسف لتأخري، فقد أخذتني زينيا إلى دارها في الليلة الماضية لتريني أشكالا من السمك تحتفظ بها في وعاء كبير. كان بعضها جميلاً. وهناك واحدة ذهبية اللون ذات ذيل أسود طويل يشبه التنورة، لم أستطع ان أرفع بصري عنها، لكنني في الحقيقة أسف جداً.

اهتاجت تانيا وارتعدت غيضا، وراحت تشير اليه وتردد:

- أنا آسف، أنا آسف كم أنت مؤدب! لماذا تركتنا ننتظرك كل هذا الوقت. لقد جعلتنا نخسر أفضل الصيد.

صمت كوليا ولم يتفوه بحرف. فقال فلكا الخبير بالصيد :

- اننا لم نخسر الصيد، وهناك وقت كثير أمامنا. صحيح أن السماء بدأت تنكشف، لكن الماء مازال معتماً إلى الحد الذي يمنعك من رؤية الصنارة. ما الذي يثير غضبك هكذا يا تانيا؟
- أنا غاضبة لأنني أكره الناس المؤدبين فوق اللزوم.

التفت كوليا إلى فلكا وقال:

- وانا أمقت القطط. كل القطط تلك التي تذهب إلى الصيد وتلك التي لا تذهب، لكن ذلك لا يجعلني أستخلص نتائج متهورة.

لبث فلكا - الذي لا يتحمل رؤية الناس يتخاصمون – ينقل بصره بين الاثنين بحزن، ثم قال:

- لماذا تتشاجران دائما؟ تفعلان ذلك في الصف، وها أنتما تعيدان الكرة هنا. والآن استمعا الي : إن ذلك الذي يتشاحن مع رفاقه قبل الصيد، لا يستحق إلا أن يترك في منزله. تلك هي حكمة أبي. أبي خير من يعلم.

هز كوليا كتفه وقال:

- لست أنا المسؤول عن ذلك، لأني لا أحب مخاصمتها. إنها هي التي تبدأ دائما، في حين يرى أبي بأننا يجب أن نكون أصدقاء

قالت تانيا :

- لا يهمني ما يقوله!

ازدادت نظرت فلكا حزناً وأسى، وحتى كوليا الذي حاول أن يخفي مشاعره كان محزوناً وقال فلكا محتجاً :

- لا لا ! لست أشاطرك الرأي. إن والدي صياد، وهو لا يتلكم كثيراً. لكن كل ما يقوله صائب وسديد.

قال كوليا :

- أترين؟ حتى المخلص سانشو بانزا لا يتفق معك في الرأي.

قالت متهكمة :

- ولماذا تسميه سانشو بانزا؟ ألأنك قرأت أخيراً دون كيشوت؟

اجاب كوليا بهدوء :

- كلا ! لقد قرات دون كيشوت منذ زمن بعيد. وانما أدعوه كذلك لعدة أسباب، أحدها أنه يحمل عنك أدوات الصيد دائماً، ويحضر لك طعم السمك.

تورد وجه تانيا بصورة مؤلمة. وانفجرت صائحة :

- إنه يفعل ذلك لأنه أفضل منك ألف مرة. لا تعطه طعما يا فلكا!

قال فلكا يحدث نفسه: يا للسماء انهما يتحدثان عني كأنني قد مت! لكنني مازلت حياً. هز كوليا كتفه للمرة الثانية وقال :

- ذلك لا يهمني لأني أستطيع الحصول على الديدان بنفسي. وسوف أجد موضعاً مناسباً للصيد. لست في حاجة لطعمك العتيق.

واندفع يهبط المنحدر، مختفياً عن الانظار خلف بعض الصخور والأشجار، ولبث الاثنان يستمعان إلى وقع خطاه على الطريق تحتهما.

ولفترة طويلة ظلت تانيا تحدق في الطريق الذي هبط عليه كوليا، وارتفع من النهر ضباب بلون اللبن، وتكور فوق الأرض مبتلعاً الورق والعشب والرمل.

وبدأ قلبها وكأن الضباب قد غشيه أيضا. وراح فلكا يحدقها بطرفه. دون أن يستطيع النطق بحرف.

وأخيرا قر عزمه أن يقول لها الحقيقة:

- ما بك يا تانيا؟ ولماذا تضايقين كوليا دائماً؟ إني أجلس معه على الرحلة ذاتها، وأعلم أن ليس ثمة شيء رديء يمكن أن يقال عنه. وهو لا يتدخل في شؤون أحد، على الرغم من كونه أفضل تلاميذ الصف، أفضل حتى منك. لقد سمعته يتحدث بالألمانية مع مدرس اللغة الألمانية. وهو يعرف الفرنسية أيضاً لكنه لم يخبر أحداً بذلك. لماذا تضايقينه اذن؟

لم تجب تانيا وإنما سارت بهدوء نحو النهر الراقد تحت الضباب وتبعها قوزاق التي استطاعت أن تغرف بمخالبها كمية محترمة من السمك الصغير. فلما رأت كوليا نظرت اليه باحتراس، ثم انكمشت على نفسها، وافسحت له الطريق. لكن القطيط المسمى بالنسر، والذي كان منهمكاً بملاعبة سمكة صغيرة أعطته اياها أمه، لم يشعر بكوليا إلا بعد فوات الأوان. وعندما وثب إلى حافة المعبر خائفاً، تزحلق إلى النهر لأنه نسي أن يمد مخالبه ليتعلق بالخشبة كما علمته أمه.

وحين رفعت تانيا بصرها، كان (النسر) يغرق، وأمه تروح وتجيء على الرمل الندى، وتموء باضطراب وفزع. عندئذ وثبت تانيا بخفة على قدميها، وفي لحظة كانت عند حافة الجرف. ثم بدأت تخوض في الماء، وثوبها ينتفخ شيئاً فشيئاً حتى عاد شبيهاً بالزهرة البوقية! ومضت قوزاق خلفها، بينما بقى كوليا جامدا في مكانه.

وأخيراً مدت تانيا يداً واحدة وأمسكت بالنسر. كان مبللاً ملوثاً بالوحل مثل جرذ صغير ميت. فوضعته تانيا على صخرة قريبة وراحت قوزاق تلحس شعره.

ولبث كوليا في مكانه لا يتحرك، فصرخت به تانيا غاضبة:

- أنت الذي رميته عن قصد في الماء. لقد رأيتك تفعل ذلك.

ولم يقل كوليا شيئا. فقالت تانيا تحدث نفسها: إنه ولد جبان. ثم ضربت الأرض بقوة ليفسح لها طريق تمر منه، لكنه لشدة دهشته لم يعرف ما يقول أو يفعل. ولما لم تعد تانيا تحتمل اكثر، أسرعت ترتقي الجرف الصاعد من الجهة الثانية، والتصقت تنورتها المبللة بركبتيها.

أسرع كوليا يجري خلفها. وحين وصل إليها عند أكواخ الصيادين وكان الجهد قد جعله يلهث، أخذ يدها في يديه وقال:

- تانيا : صدقيني اذا قلت لك بأنني غير مسؤول عما حدث. لقد سقط القط صدفة. ولا يد لي في الأمر كله.

غمغمت تانيا وهي تحاول أن تتملص من قبضة يده :

- اتركني فلست أنوي أن اصيد بعد هذا وسأعود إلى البيت .
- اذن فسأذهب أنا الآخر.

وترك يدها، ومضى يتبعها. فصاحت به :

لا تتجاسر وتتبعني!

وتوقفت عند أحد الأكواخ مستندة إلى صخرة عالية. فسألها :

- لكنك قادمة للغداء معنا. أليس كذلك؟ إنه يوم الأحد ووالدي ينتظرك. سيظن أنني فعلتُ شيئا جرحتُ به مشاعرك.
- ذلك إذن ما تخشاه.
- لا إنك لم تفهميني. أنت ترين بأني أحب أبي ولست أريد أن اؤذيه أو أن أدعك تفعلين ذلك. ذلك هو قصدي.

- هذا يكفي. أني أفهمك تماما. ولن آتي للغداء اليوم. بل لن أزور داركم بعد الآن أبداً.

قالت ذلك ثم اختفت وراء جدار أحد الأكواخ.

جلس كوليا على الصخرة الكبيرة. كان الجو دافئاً بعد أن طلعت الشمس. ولم يبق أثر للرطوبة إلا في البقعة الندية التي تركتها ثياب تانيا المبللة على الصخرة.

وضع كوليا يده على الموضع المبلل من الصخرة وقال لنفسه، متوصلاً إلى النتيجة التي وصل إليها قبله فلكا:" إن تانيا فتاة غريبة. هل تحسبني حقاً جباناً؟؟ إنها فتاة غريبة حقا! إنها تستطيع أن تقول أو تفعل أي شيء في الدنيا، ولاجدوى من التعجب منها " وغرق في التأملات.

لم ير فلكا شيئاً مما جرى. إذ كان مختفياً وراء نتوء أرضي صغير، ومنهمكاً في صيد السمك المسطح. وكان أفضل ما اصطاده سمكة شبوط ذات رأس كبير، قتلها على الرمل بصخرة حادة، ثم جلس يلتقط أنفاسه. فخطر له أن يلتفت إلى البقعة التي يجلس فيها رفيقاه. لكنه لم ير غير قصبتين عائمتين فوق الماء. وقد توتر خيط أحدهما إذ كانت السمكة قد اصطيدت بالصنارة. لكنه لم ير أي أثر لكوليا أو تانيا. ثم حول نظره نحو الجبال. فلم يحس بغير الرياح الخفيفة تهب على المكان مستوحشةً من الوحدة. وثمة قطة تدب في الطريق مرتقية الشعب الجبلي وخلفها صغارها.

*

وذهبت تانيا إلى دار أبيها بعد كل شيء. واذ بلغتها دفعت الباب الزجاجية بعنف، وتركتها مفتوحة، ريثما تأمر "النمر" بالبقاء خارجا، ثم عادت فأغلقتها بضربة قوية أخرى. كانت زيارتها لهذا المنزل حقاً من حقوقها التي لا يناقشها فيها إنسان. لأنها إنما تزور أباها وهو يسكن هنا. واذا خطر لأحدهم أن الأمر لم يكن كذلك، وأن فطيرة الكرز هي سبب اضافي يجذبها إلى هذه الدار، فإن من الأفضل له أن يعاود التفكير في الأمر من جديد!

عادت تانيا وضربت الباب ضربة أخرى جعلت زجاجها من اعلاه إلى أسفله يطقطق منفعلاً ثم مضت رأساً إلى المائدة، وانحشرت في مقعدها.

كانت العائلة قد بدأت بالغداء، وتوسط المائدة صحن كبير من الفطيرة المحشوة باللحم صاح والدها مبتهجاً:

- تانيا! لقد جئت، رائع. مع أن كوليا ذكر أنك لن تحضري اليوم. ويسرني أنك غيرت رأيك. هيا إلى الطعام لقد صنعت ناديا هذه الفطيرة المحشوة لكِ أنتِ. وساعدها كوليا في عملها. ولقد نجح في مسعاه كما ترين.

فكرت تانيا: إذن فهو يحسن حتى الطبخ، ومضت تتفرس بعناد في وجه أبيها، وفي الجدار، وفي يدي ناديا وهما تقدمان إليها الخبز وقطع الفطيرة، وفي كل شيء إلا وجه كوليا فقد تجنبت النظر إليه. أما هو فقد ثبت في مكانه. كان جالساً محني الظهر ورأسه بين كتفيه، وارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة وقال:

- بابا! لماذا أخبرت تانيا بأنني شاركت في عمل الفطيرة؟ سترى بأنها لن ترضى حتى بأن تتذوقها.

قال الأب متسائلاً بلهفة:

- ولماذا؟ هل تشاجرتما؟

أجاب كوليا :

- كلا يا أبي. نحن لا نتشاجر لأنك أخبرتنا بأنه لا ينبغي لنا ذلك. وإن علينا أن نكون أبدا على وفاق.

قال الوالد :

- نعم فذلك أحسن.

أحنى كوليا رأسه، وهمس في أذن تانيا :

- من هو الذي أخبرني بأنه لن يتغدى معنا اليوم؟

أجابت تانيا بصوت مرتفع :

- إني لم آت كي اتغدى. أنا لست جائعة.

واذ شرع الوالد وناديا يعترضان قالت:

- لا لا...لست جائعة.

سألها أبوها متحيراً :

- لماذا؟ وكيف لا تجوعين؟ ألا تحبين أن تأكلي شيئا من الفطيرة؟
- لا وأشكرك. فقد تغديت مع والدتي .

قال كوليا متهكماً :

- لا حاجة بك يا بابا أن تسألها للمرة الثالثة  أنها لن تأكل على أية حال.

قال أبوها متأسفاً :

- إذا كانت لا تريد الأكل فذلك شأنها. لكنه أمر مؤسف. لأن الفطيرة شهية حقاً.

كان الأمر كما ذكر أبوها. فقد بدت الفطيرة مغرية جداً. لكن هؤلاء القوم يضحكونها. فهم يقدمون الخل مع الفطائر الحلوة. ما أعجب ذلك! بينما تؤكل الفطيرة مع الحليب عادة، اذ تغمس كل قطعة منها فيه. ثم توضع في الفم، فيلتهب الفم وكأنما بنار سحرية!

دارت الأفكار في رأس تانيا وتدافعت مثل زوبعة عاتية. لكن عينيها ظلتا مشدودتين إلى صحنها حيث بدأت فطيرة اللحم تبرد. وشعرت بدوار خفيف بسبب الجوع وبسبب حيرة قلبها الذي لم يكن يعرف ما يريد. لقد جاءت إلى الدار مثل إنسان أعمى، ولم تصغِ إلا إلى دقات قلبها. وها هي ذي في حالة مربكة. ربما ستستعيد رباطة الجأش إذا فتحت موضوعاً للنقاش ولذلك قالت فجأة:

- بابا أصحيح ان سمك السردين يولد مالحاً؟ إن كوليا هو الذي قال ذلك. كما أنه يقول إن علم الحيوان كله خطأ في خطأ بل إنه ليس علماً أصلاً.

قال والدها :

- لست أفهم ما تقولين.

توقف كوليا من الأكل. ومسح شفتيه، ومر بيده فوق وجهه الذي ارتسمت عليه أشد علامات الدهشة. فهو لا يذكر أنه قال شيئاً من هذا القبيل. لكن عجبه سرعان ما زال حين تذكر ما قر عزمه هذا الصباح فقط، من عدم التعجب من أقوال تانيا أو أفعالها، مهما بلغ من غرابتها. وفي غضون دقيقة استعاد صفاء ذهنه، وراح يتفرس في وجه تانيا، وقد ارتسمت في عينيه الصافيتين ابتسامة متألقة وقال:

- إنه ليس علماً بالتأكيد. وكيف يكون كذلك وكل ما يزعمه أن القطة شيء له أربعة أقدام وذيل؟

صعد الدم إلى جبيني تانيا وخديها، فقد عرفت القطة التي يعنيها.

وقالت :

- ما المواضيع التي تحبها إذن؟
- الرياضيات...اذا تماست دائرتان في نقطة...كذلك أحب الأدب لأني أجده لطيفاً. رددت تانيا :
- لطيف؟

وعلى الرغم من ولعها بالفنون، وإعجابها بتشارلز ديكنز ووالتر سكوت، وحبها الشديد لغوغول فإنها قالت متهكمة:

- إني لا أراه لطيفاً.. في ذات يوم التقى حمار ببلبل...إنه شيء سخيف!

استمر الاثنان في مثل هذا الحوار، ولم يتوقفا حتى عند النكت التي يطلقانها. وكانت عينا كل منهما تنفث شرر الغضب والاحتقار، إلى أن قال والدهما الذي لم يستطع أن يفهم ما يقولان :

- كفى عبثا أيها الأولاد. لست أدرى فيم تتناقشان.

كان رأس تانيا يدور ويدور والطنين في أذنيها يعلو ويعلو، اذ بلغ الجوع منها كل مبلغ ووصل حتى شغاف قلبها، ومزق دماغها، بل سال حتى كاد يسمم دمها! واغمضت عينيها حتى تتجنب رؤية الطعام. وحين أعادت فتحها كانت الأطباق ترفع، ولم يبق على المائدة غير صحنها، الذي امتدت إليه يد ناديا في تلك اللحظة كي ترفعه. وبدون اي تفكير أمسكت تانيا بالصحن، وهي تلعن اليد الآثمة في قلبها فقالت ناديا:

- ما الامر هل أدع فطيرة اللحم؟
- لالا.. كل ما هناك أنّي أود أن أقدم للنمر شيئا منها، هل تسمحين لي؟

قال والدها :

- بالتأكيد، يمكنك اعطاءه الصحن كله إذا شئت.

غرست تانيا شوكتها في عدة قطع من الفطيرة الباردة، وحملتها إلى خارج المنزل. وهناك تحت المدخل المسقف، قرفصت على الأرض أمام النمر، وراحت تأكل الفطائر التي اغتسلت بدموعها واحدة تلو الأخرى. فاحتار النمر وغطى نباحه العالي وقع الاقدام المقتربة من تانيا وفجأة أحست تانيا بذراعي أبيها حول كتفيها، ووجدت نفسها تحدق في عينيه. قال:

- لقد رأيت كل شيء من خلال زجاج الباب. ما بك حبيبتي؟ هل يضايقك شيء؟

قال هذا ورفعها من الأرض. ثم حملها بيديه، وكأنه يزن الحزن الذي يثقل فؤادها.

نظرت إليه تانيا بهدوء. كان ما يزال بعيداً عنها. ورأته كبيراً مثل أضخم شجرة في الغابة. إنها تستطيع أن تمس جذع الشجرة الطويلة، لكن عينيها تعجزان عن رؤية الشجرة بكاملها اذا ألقت عليها نظرة واحدة، واستندت إلى كتفه فقال لها:

- حدثيني يا تانيا عما يجلب لك السرور وما يسبب لك الحزن، فربما استطعت ان أساعدك. قولي لي فيما تفكرين هذه اللحظة؟

لكنها لم تخبره. وكيف تفعل؟ وأفكارها مازالت تجري هذا: إن لي أماً وبيتاً وطعاماً. بل إن عندي كلبا وقطة، لكني بلا أب.

كيف تقول له ذلك وهي جالسة فوق ركبتيه؟ إن كلماتها ستجعل وجهه شاحباً، بشكل لم يسبق له أن عاشه، حتى قبل أعنف المعارك الحربية.

لكنها لم تعلم، لم تستطع ان تتصور أن هذا الرجل كان لا يفكر في تلك الأيام، في اليقظة والمنام، إلا فيها، وأنه كان يردد اسمها – الذي لم يتذكره فيما مضى من حياته إلا نادرا – بإعزاز ومحبة. بل إنه حتى في تلك اللحظة حين كان يجلسها فوق ركبته كان يفكر هكذا: "ها أنا أترك سعادتي تفلت مني، إذ لا يمكنني أن أقبل طفلتي أنا " لكن هذه الأفكار لم تخطر لتانيا على بال. وكل ما استطاعته أن تستند إلى كتفه مرتاحة. لكن.. آه ه ه ما أحلى أن تجلس هنا...حقاً ما أحلى ذلك!

كان ذلك في نهاية الخريف. والمدخل المسقف مندى بالمطر، وهواء ما بعد الظهر شديد البرودة. لكن تانيا شعرت بدفء تام، وهي تجلس مع أبيها لتراقب النجوم التي تحبها.

*

بعض الأشجار يمكن أن تكون آدمية، والشجرة التي نعنيها تنبت في الساحة الخلفية للمدرسة. ويمكن مشاهدتها بوضوح من نوافذ الصف. فحين تندس في رحلتك صباحاً وتنظر إلى الخارج تبتسم لك الشجرة هاتفة "هالو" فترد على ابتسامتها وتلوح لها بيدك.

ومع أن الخريف قد أسقط أوراقها، لكنها مع ذلك ظلت تزهو بأغصانها النضرة السامقة نحو السماء، وبجذعها الداكن الحي .

ولم تعرف تانيا اسم الشجرة وهل كانت من أشجار الدردار أم لا، لكن الجليد حين بدأ يغطي أغصانها ولحاءها متشبثا بمكانه، كما يتشبث السكران بعمود صلب، ومع ذلك فلم يستطع ان يحتفظ بسلطانه طويلاً اذ سرعان ما ذاب وبدأ يسيل..

وفكرت تانيا مع نفسها، بعد أن اومأت إلى الشجرة بالتحية. لابد أنها مفعمة بالحيوية والدفء مثلي ومثل الآخرين.

كان كوليا في تلك اللحظة واقفاً عند السبورة يشرح الدرس، محللاً أدب ماكسيم غوركي، ولكوليا وجه يوحي بالذكاء. فجبينه عالٍ وتطل من تحته عينان صافيتان متألقتان، وحين يتكلم فحديثه يفيض حيويةً ودفئاً.

سرت الكسندرا ايفانوفنا من كوليا، وحدثت نفسها إن هذا التلميذ الجديد سيكون مفخرة لصفها. وعلى حين غرة قال كوليا، والدم يصعد إلى منابت شعر رأسه إذ كان يكره المفاخرة أشد الكراهية:

- لقد رأيت غوركي ذات مرة !

هتف الطلاب بصوت واحد، وقد أحسوا بارتباكه:

- حدثنا عن ذلك .

وقالت الكسندرا ايفانوفنا :

- رأيت غوركي. ذلك حدث مثير. أين رأيته؟ وهل تكلمت معه؟
- كلا ! فقد لمحته من بين الأشجار وذلك في إحدى الحدائق. لكني لا أتذكر جيداً، إذ لم أكن حينئذ قد تجاوزت العاشرة من العمر.

ومضى كوليا يحدث زملائه عن بلدة في الجنوب، ذات تلال كثيرة، وشوارع رمادية، تشرق عليها الشمس دائماً، وتنهق في دروبها الحمير صباحاً. ومن سياجات الحدائق تطل أوراق العنب الخشنة الداكنة.

أصغى الاولاد إلى وصفه مبهورين، إلا تانيا فقد بدت وكأنها لم تسمع شيئاً، اذ كانت ما تزال تحدق – من خلال النافذة – في الشجرة المرتعدة العارية وهي تستقبل أولى دفعات الجليد.

كانت تانيا تحدث نفسها قائلة: عنب؟ وأنا لم أر طيلة حياتي سوى الصنوبر والشربين، وغرقت في رؤى بعيدة، مصورة في نفسها أشجار التفاح والكمثرى، والقمح في حقوله، وارتسمت في خيالها صور أزهار ونباتات نادرة الحسن.

وفي أثناء ذلك كانت الكسندرا ايفانوفنا المتكئة على إطار النافذة تراقب تانيا وهي التلميذة الأثيرة لديها لكنها تثير في نفسها القلق فتتساءل: أيجوز أنها بدأت تفكر في حفلات الرقص والأولاد؟ إن ذاكرتها قوية كما كانت دائماً، لكن نظراتها شاردة، ولم تحصل إلا على درجة "جيد " في امتحان التاريخ الأخير، وقالت لها:

- تانيا سابانيفا إنك لا تصغين.

وقفت تانيا على قدميها، بعد أن انتزعت بصرها بصعوبة من النافذة، لكنها ظلت غائبة الفكرة تائهة في عوالم الخيال الغامضة.

- حسن يا تانيا ؟
- ان حدثيه غير مشوق.
- ليس ذلك صحيحاً. فحدثيه مشوق إلى أقصى حد وكنا نصغي إليه كلنا باهتمام شديد هل زرت أنت تلك المناطق التي يصفها؟ وهل رأيت غوركي، غوركي بدمه ولحمه؟

قالت تانيا بصوت مرتعد :

- لم يأخذني أبي إلى هناك أبداً.
- ذلك أدعى إلى أن تهتمي بحديث كوليا .
- لن أستمع إليه.
- ولم لا ؟
- لأن كلامه لا صلة له بدرس اللغة الروسية!

ابتعدت الكسندرا ايفانوفنا من النافذة ببطء، ورنت خطاها – الناعمة عادة – في الصف بصورة مسموعة وهي تقترب من تانيا. كانت شديدة الانزعاج وفي عينيها نظرة غاضبة.

وبدا الخضوع على تانيا وهي تنتظر ما سيحدث. قالت الكساندرا ايفانوفنا :

- من فضلك، اطلبي من والدك أن يحضر غداً ليراني.

ونظرت بعبوس في وجه تانيا، فرأت جبينها الملتهب، وعجبت اذ لحظت شفتيها اللتين نطقتا قبل لحظات فقط بتلك الكلمات الوقحة – وقد ابيضتا.

قالت تانيا هامسة:

- سأخبر والدتي، وسوف تأتي.

ترددت المُدرسة، كان موقف هذه الفتاة قد حيرها. من يدري لعل لكوليا صلة ما بهذه المسألة. وقررت أن تقوم هي بزيارة لوالدة تانيا في منزلها ليكون بينهما حديث طويل. حركت يدها ولمست بها أصابع تانيا. وقالت :

- يكمن وراء سلاطتك هذه شيء ما، لكنني سوف أتغاضى عنها هذه المرة، ولا حاجة لمجيئ والدتك أو والدك. لكنك يجب أن تدركي أن سلوكك اليوم مخالف لأبسط قواعد العرف الكشفي. إنك تتفوهين بما ليس في عقلك، أنت التي كنت دائماً أشد الطالبات إنصافاً وتفهماً للغير.

قالت ذلك ومضت نحو منضدتها، وهي مازالت شديدة الانزعاج. وكان التلاميذ قد صمتوا، ولبثوا جامدين في أماكنهم إلا زينيا السمينة، فقد التفتت بسرعة إلى الوراء، حتى كادت مفاصل رقبتها تنخلع، وهمست لفيلكا، بينما حصلت منه على ركلة شديدة

- كل ما هنالك أن تانيا تحب كوليا!

لكن ماذا يستطيع الانسان أن يصنع مع زينيا؟ إنها ثرثارة صغيرة لا تملك تحت شعرها المجعد ذرة من الخيال.

وفي أثناء ذلك ظلت تانيا واقفة في رحلتها، تقبض عليها بأصابعها المرتجفة، وقد بدا عليها الضعف الشديد. ولولا قوة إرادتها لهوت إلى الأرض.

قالت الكسندرا ايفانوفنا :

- لماذا تقفين؟ اجلسي.
- هل لي أن أغير مكاني؟
- لماذا؟ ألا تحبين الجلوس مع زينيا؟
- إني لم أقل ذلك. لكن الشجرة التي أراها من النافذة تلهيني عن متابعة الدرس.
- حسن جداً. اذهبي إلى موضع آخر. أنت فتاة غريبة الأطوار يا تانيا.

سارت تانيا إلى آخر رحلة في الصف. وجلست فيها. ستكون هنا وحيدة. قالت المُدرسة :

- واجلس أنت أيضاً يا كوليا.

كان انشغالها بتانيا قد انساها كوليا تماماً. لكنّ كوليا لبث في مكانه جامداً، وقد انحنى إلى أمام، وكأنه واقف على طريق جبلي منحدر بدلاً من أرض الغرفة المستوية. كان وجهه محمراً وفي عينيه نظرة عناد. وقالت المدرسة مكررة :

- يكفي هذا يا كوليا. إنك تستحق درجة امتياز.
- هل لي أن آخذ رحلة تانيا سابانيفا؟
- ماذا أصاب كلاً منكما ؟

لكنها مع ذلك سمحت له بالجلوس حيث يشاء. فاندس في الرحلة بجانب زينيا لمجرد العناد .

أما عن تانيا فإنها حين وجدت نفسها منفردة في رحلتها، نظرت إلى النافذة في الخارج، آملةً أنها لن تتمكن من مشاهدة الشجرة، لكن الشجرة كانت هناك في مكانها، وكان الجليد قد كف عن الذوبان، وبدأ يغطي أغصانها جميعاً، حتى وصل إلى أعلى فروعها، فأخفاها عن الأنظار.

*

قال فيلكا محدثاً نفسه:" إذا تُرك المرء وحيداً، ضل طريقه ". كان واقفاً وحده في الشارع الخالي، الذي اعتاد أن يقطعه مع تانيا عند عودتهما من المدرسة إلى البيت.

ولم يدرك فيلكا ما الذي جذب انتباهه فأنساه الوقت. أهو الكيك اللذيذ المرتب أمام البائع في طبق، أم هو البائع الصيني نفسه في قبقابه الخشبي العجيب، أم هو تفكيره في وحدته، وفي عودة تانيا بمفردها إلى المنزل، وهو أمر سيء بالنسبة لكل منهما.

ولو حدث ذلك أثناء اقامتهما في المخيم لعرف ما يصنع. كان يتتبع آثار أقدام تانيا في المسالك التي تطرقها إلى أن يصل إلى مكانها. أما هنا في المدينة فهو لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل. لأنه سيعرضه إلى سخرية زملائه، وربما أطلقوا عليه ذلك اللقب المرعب "كلب المطاردة " وهكذا توصل فيلكا إلى النتيجة المرة، وهي أنه يعرف أشياء كثيرة حقاً، لكنها جميعاً لا تجديه نفعاً في المدينة.

لقد كان يعرف كيف يتتبع السنور الأسود قرب جداول الغابة عند اول سقوط الجليد، ويعرف متى يضع للكلاب عدتها، ليستعملها فوق الجليد وهو واثق من عدم تصدعه تحت الأقدام وهو يعرف أيضاً بأن الرياح إذا هبت من جهة معينة، حين يكون القمر بدراً فإن الإعصار يكون متوقعاً .

لكن هذه الخبرات لا تجديه نفعاً هنا في المدينة، فما من أحد ينظر إلى القمر، لأن الصحف هي التي تعلن للناس عن الوقت الذي يكون فيه السفر مأموناً، عند هطول الجليد، كما أن العلم الذي يرفع فوق برج المراقبة يكون بمثابة إنذار للناس بقرب وقوع إعصار.

كانت حياة فيلكا في المدينة مماثلة لحياة أي تلميذ آخر. ولم يكن فن اقتفاء آثار الحيوانات على الجليد ضمن مناهج الدراسة، لكن المتوقع من التلميذ أن يحل أصعب المسائل الرياضية، وأكثرها تعقيداً. كما أنّ عليه أن يحسن التعبير عن المعاني المعقدة بأن يضعها داخل إطار من الألفاظ المناسبة، وهذه المهمات تجعل أعظم صياد في الغابة مرتبكاً عيياً.

لكنه في هذه المرة صمم أن يعمل بطريقته الخاصة. وإذا ضحك أحدهم منه أو سماه كلب المطاردة، فما عليه إلا أن يتكلف اللامبالاة. وجثم في وسط الشارع على الأرض، وجعل يختبر كل آثار الأقدام المطبوعة، وحالفه الحظ، إذ كان ذلك الشارع هادئاً، والجليد مازال طرياً لم تطأه الأقدام بعد.

بعد فترة وقف فلكا، وتحرك إلى الأمام، وبصره مازال مشدوداً إلى الأرض. لقد عرف الآن كل الذين ساروا في هذا الطريق، وكأنه رآهم بأم عينه، كان السبيل الذي سلكته تانيا يتابع السياج، لقد مشت وحدها سابقة الجميع، وحاولت أن تجعل خطواتها خفيفة، كي لا تفسد الجليد المخملي الناعم. أما آثار جزمة زينيا فقد كانت محاذية لآثار حذاء كوليا الذي مشى بخطوات صغيرة، لكنها مع ذلك ثابتة، تشير إلى حالة التحدي التي كان فيها وهو يخطو على الجليد.

وكم كان مسلك زينيا وكوليا غريباً. كانا بين الحين والحين ينحرفان عن الطريق، ويقفان منتظرين، ثم يهرعان في الطريق ليلحقا بتانيا من جديد. ويبدو أنهما كانا يضحكان منها. أما تانيا فقد سارت بقلب موجع. ولا يتذكر فيلكا أنها تركت آثار أقدام مثل هذه في حديقة داره أو على ضفاف النهر الرملية حين كانا يذهبان إلى الصيد.

لكن أين اختفت تانيا بعد ذلك؟ لقد تلاشت آثار قدميها بغتةً في بقعة عند السياج تخلو من أي باب أو مدخل. هل يمكن ان تكون قد حلقت في السماء مثل عصفور؟ أم ان الرياح حملتها في دوامة الهواء، وأرسلتها لتدور حول نفسها بين الغمام؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فكيف استطاعت أن تتسلق سياجاً عالياً مثل هذا؟

وقف فلكا لحظةً، ثم تابع آثار زينيا وكوليا، كانت طبعات أقدامهما تسير جنباً إلى جنب بادئ الأمر، ولكنها تباعدت عند المنعطف في حالة غيظ عنيف.

وقال فيلكا لنفسه وهو يضحك "لقد تخاصما"، ثم عاد إلى السياج، حيث اختفت آثار قدمي تانيا، ووقف برهةً يفكر. ثم رفع يده مخاطباً نفسه: نعم توجد قطعة خشب ناتئة في السياج، ولابد أن تكون تانيا قد استندت عليها في محاولة منها لتسلقه. إن لها ساقين قويتين فاذا لم تكن ساقاي أقوى مرتين، فإن من حق مدرس الرياضة أن يدفني حيا! ورمى محفظته فوق السياج، ثم وثب إلى علو كبير في الهواء، مما أفزع امرأة عجوزاً كانت تجتاز الطريق في تلك اللحظة، فصاحت به: أيها الشيطان الصغير! لكنه لم يسمعها إذ كان قد هبط في حديقة خضر خاصة على الجانب الآخر من السياج، ومضى يقتفي بقية آثار الخطى المعينة إلى أن لاح له سياج آخر أقل ارتفاعاً من الأول، فتسلقه، ووصل إلى الغابة الصغيرة القائمة خلف مسكن تانيا، ودار حول أدغال كثيفة، ألقت ثمارها على الجليد لتلتفت إلى الغابة. كانت أشجار البتولا الصغيرة قد غمرت بالثلج حتى بدت الغابة شيئاً خيالياً لم يعرف له فيلكا شبيهاً حتى في أحلامه وهو الذي ترعرع في الغابات. كانت حاشية كل فرع من فروعها محددة وكأنها رسمت بالطباشير. وتلفعت الجذور بالدخان، أما اللحاء فقد تطايرت فوقه خيوط رفيعة من الأشعة المتلألئة.

وفي هذه الأيكة الفضية، كانت تانيا واقفة بلا حراك، وسط الأشجار الساكنة. كانت تبكي فلم تسمع صدى أقدام فلكا، ولا حفيف الأغصان التي يحركها حين يشق طريقه.

اختبأ فلكا خلف الأدغال، وجلس القرفصاء على الجليد مدة دقيقة ثم زحف بسكون وعاد من حيث أتى، وخرج من الغابة. وقال يحدث نفسه للمرة الثانية: "إذا بقي الإنسان وحده ضل سواء السبيل، وعرض نفسه لمخاطر الضياع، وسار خلف الناس مثل كلب الصيد، وقفز فوق الحواجز، وراقب الآخرين سراً من خلف الأشجار مثل الثعلب، لكن أحد الناس إذا بكى، فإن الأفضل له أن تتركه لوحدته !"

ومضى يتبع طريقاً طويلاً حول الغابة، ثم دخل شارعاً فرعياً حتى بلغ بوابة منزل تانيا، ففتحها ودخل بجرأة. وأخبر المربية ناني، بأنه يريد مقابلة والدة تانيا، ليعلمها بأن ابنتها ستتأخر قليلاً عن موعد عودتها، بسبب بعض الواجبات المدرسية.

ولما أرشدته المربية إلى مكانها وفتح الباب ثم نظر إلى الداخل أغلقها بسرعة خاطفة متراجعاً إلى الوراء. فلقد لمح ألكسندرا ايفانوفنا جالسة بجانب والدة تانيا على أريكة حمراء صغيرة. وقد لفت ذراعها حول كتفيها ومضت تحدثها حديثاً جدياً. كانت كل من المرأتين تمسك منديلاً صغيراً أبيض اللون تمسح به عينيها بين الفينة والأخرى، ترى هل كانتا في ضيق هما أيضا؟

سار فلكا على أطراف أصابعه حتى لا يشعر به أحد. ولما بلغ مدخل الدار دون أن يلمحه أحد، مشى بخفة نحو البوابة، وغادر المنزل.

نعم لقد كان يعرف أشياء كثيرة، لا تجديه نفعاً في المدينة. إنه يستطيع التفريق بين الحيوانات من أصواتها، ويحسن الاستفادة من الأعشاب، ويمكنه تقدير عمق أي نهر، لكنه حين يرى شخصين، يبكيان معاً بدل أن يضحكا، يقف عاجزاً لا يدري ما يصنع. ولذلك قر عزمه أن يترك ألكسندرا ايفانوفنا مع والدة تانيا لتبكيا كما تحبان، أما هو فإن عنده الآن مهمات أخرى، فلقد حل الشتاء. وسوف يتجمد ماء النهر قريباً، ويتوجه كالنحاس تحت ضوء القمر، ومن ثم فإنّ الواجب عليه أن يعتني بكلابه.

*

بدأ الجليد يتساقط بغزارة أحياناً وباعتدال أحيانا أخرى، إلى أن حلت أيام العطل الشتائية، وسرعان ما دفنت المدينة تحت الثلوج، وأضحى فتح مصاريع الأبواب والنوافذ مهمة عسيرة، وصار لزاماً على الناس أن يحفروا الخنادق في الجليد ليتسنى لهم السير على الأرصفة. أما الشوارع نفسها فقد صارت أعلى من أرصفتها! لكن الثلج لم يكف عن الهطول، بل استمر يتساقط ويتساقط حتى أطبق على النهر والجبال. غير أن ساحة المدرسة كانت المكان الوحيد الذي قُهر فيه الثلج، حيث كانت أقدام الطلبة تسحقه كل الوقت ومن ثم يضطر إلى التشبث بالأرض والالتصاق بها بقوة، مما يجعله ناعماً يصلح للاستعمال التشكيلي مثل الطين.

ومنذ عدة أيام بدأت تانيا تمضي فترة الغداء في خارج البناية، لعمل تمثال من الجليد، وأخيراً انتهت منه، وحمل الأولاد الذين اشتغلوا معها السلم إلى السياج، ورفعوا سطل الماء، بينما تراجعت تانيا إلى الوراء لتلقي نظرة دقيقة على تمثالها الجميل.

كان الشكل يمثل جندياً مرتدياً خوذة، يشبه أباها في كبريائه وكتفيه العريضين. وكان يبدو، وهو مستند إلى بندقيته وعيناه مثبتتان في الفضاء اللانهائي، والبحر المعتم الممتد أمامه، مثل خفير واقف على باب الأبدية! وبالطبع لم يكن ثمة بحر في المكان لكن فكرة وجوده كانت شيئاً ظاهراً بصورة مذهلة، حتى أن الأولاد التفوا حوله، يحدقون فيه صامتين مدة طويلة. ثم رفع الكبار منهم تانيا بأيديهم قبل أن تشعر، وقذفوا بها في الهواء وهم يطلقون هتافات الاعجاب، فصرخت بعض الفتيات رعباً! على أن تانيا لم تند عنها صرخة واحدة رغم شدة ارتباكها. وفي الواقع فإنها لم تتوقع أن ينجح تمثالها هذا النجاح، بل إنها لم تعد له أية خطة واضحة مسبقة. كل ما هناك أن فكرة صنع التمثال شغلتها على حين غرة، فمضت تعمل فيه بجد و بدون كلل إلى أن انتهت منه، ومن قاعدته التي يقف عليها، وهي من الثلج أيضا، وها هي تحس الآن بآلام حادة في أصابعها، من طول ما عملت في الماء البارد وفي الثلج. ومضت تدسها في فمها لتحصل على الدفء.

وقف كوليا على بعد ينظر إلى التمثال، دون أن يحاول الاقتراب وحضرت إلى الساحة ألكسندرا ايفانوفنا عند سماعها الهتافات، بدون معطف، ومضت تتأمل الديدبان الثلجي بإعجاب لأمد طويل، وقد أدهشها جماله. وبيض ندى الثلج وبر ثوبها الصوفي، ونامت نجمة العقيق الصغيرة على جيدها. ومع ذلك فقد ظلت واقفة في مكانها تحدق في التمثال، وتسترجع ذكريات طفولتها، مع الألعاب التي

كانت تعكف عليها في تلك الايام. ففي ذات مرة صنعت هي ورفقائها أشخاصاً من الثلج، وها هي تتذكر واحداً منها بصورة خاصة انه ذلك التمثال الذي وضعوه في احد أركان الساحة، وكان له منظر رهيب في الليل حين تستحم الجدران الحجرية للساحة و المنازل المجاورة بنور القمر، وفي إحدى الليالي لمحته من خلال النافذة، فارتعبت وانفجرت باكية، ولم يعرف أحد – غيرها - سبب بكائها. وفي تلك الليلة المقفرة أصيبت بالأرق ولم تنم طول الليل، لأنّ رجل الثلج بدأ برأسه المدور الضخم وفمه المجوف الأسود، الذي رسمت الشفاه عليه بالفحم، وحشاً مخيفاً آتياً من مملكة العالم السفلي، والآن وبعد عشرين عاماً تلفتت ألكسندرا ايفانوفنا حولها لتتأكد من عدم وجود رجل الثلج المرعب خلفها. لكن الساحة كانت مكتظة بتماثيل مختلفة تمثل الفاتحين والأبطال وحتى الفرسان على خيولهم. لكن أياً منها لم يستطع أن ينافس خفير تانيا، وإنما كانت جميعها عفوية وخيالية في الوقت عينه.

التفتت ألكسندرا ايفانوفنا نحو تانيا قائلة :

- أأنت صانعة التمثال ؟

فأومأت تانيا برأسها وأخرجت أصابعها من فمها. ثم قالت :

- لقد بردتِ يا ألكسندرا ايفانوفنا، وتغطت نجمتك الصغيرة بالندى، هل تسمحين لي بلمسها؟

ومدت يدها، وجعلت تمسح النجمة بأصابعها، حتى عاد إليها البريق.

فسألتها ألكسندرا ايفانوفنا :

- هل تحبين أن تحصلي عليها كمكافأة على تمثالك الممتاز؟

انشغلت تانيا لهذا العرض، فقالت:

- آه كلا يا ألكسندرا ايفانوفنا، لأننا جميعا نفكر فيك والنجمة على ثوبك، ولست أحب أن أحرم الآخرين منها.

قالت هذا وجرت نحو الباب، حيث كان فيلكا يلوح لها بيده. وسارت ألكسندرا ايفانوفنا متمهلة إلى المدخل المسقف، وهي تفكر في تانيا. كم من مرة في الآونة الأخيرة، رأتها حزينة وشاردة البال، بينما كانت كل حركاتها تزداد رقة ورشاقة. ربما كانت أنفاس الحب الدافئة قد مست قلبها.

فكرت المدرسة في ذلك وابتسمت في نفسها وهي تقول:" حسن ليس في ذلك ما يخيف. لكن ما هذا الذي تملكه بكل تلك الحيوية؟ لن يكون الصمغ الذي يبيعه

الصيني المتجول؟ وآهاً للحب، الحب العذب الذي يخفف بقطعة من العلك! وأطلقت ضحكة ناعمة وأغلقت الباب خلفها تاركة التلاميذ لشأنهم.

ولم تكن المدرّسة مخطئة، فقد حصل فيلكا على كمية كبيرة من صمغ الشريين، ومضى يقتسمها مع زملائه وزميلاته، باستثناء زينيا التي ما فتئت أن صاحت:

- هات شيئاً لي أيضاً يا فيلكا.

لكن الأولاد ضحكوا وقالوا :

- لا شيء للبنات يا فيلكا.

قال فيلكا:

- ولم لا ؟ سوف أعطي زينيا أكبر قطعة إذا اقتربت مني هنا.

ولم تكن زينيا في حاجة إلى من يحثها. وحين جاءت إليه، أخرج محفظة ورقية صغيرة من جيبه، ووضعها في يدها.

قالت وهي تفتح المحفظة، وقد اشتدت دهشتها:

- إنك تعطيني أكثير من كثير؟

لكنها رأت في يدها فأرا صغير الحجم من مواليد الساعة؟ فصرخت بفزع وقذفت به الى الأرض، وهربت الفتيات اللواتي كن بجانبها.

جثم الفأر على الثلج مرتعداً. وصاحت تانيا بغضب:

- ماذا تصنعين إنه سيتجمد؟!

وانحنت إلى الأرض لترفع الفأر، ومضت تدفئه بأنفاسها الحارة ثم وضعته في بطانة معطفها.

وفي هذه اللحظة اقترب من الطلبة، رجل لم يره أي فرد من قبل هنا في المدينة، كان يضع على رأسه قبعة سيبيرية سميكة، ويرتدي معطفاً شتوياً ثقيلاً. لكنه لم يترك لقدميه غير حذاء خفيفاً لا يناسب البرد أبدا.

قال فيلكا:

- هذا زائر غريب عن هذه النواحي.

وأيده الجميع قائلين:

- نعم إنه غريب.

ومضوا يتفرسون في وجهه وهو يقترب منهم. وتعلقت تلميذة صغيرة بمعطفه وسألته:

- أأنت المفتش؟

لكنه لم يجب وانما تقدم نحو تانيا وقال:

- هل يمكنكم أيها الصغار ارشادي إلى غرفة المدير؟

ولكنهم تراجعوا إلى الخلف، من يدري، كل شيء ممكن الحدوث؟ ولعله فعلاً المفتش قال الرجل متسائلاً، وهو يلتفت إلى تانيا:

- لماذا تصمتون؟ أرجوك يا عزيزتي أن ترشديني إلى مكتب المدير. ظنت تانيا أنه يخاطب غيرها فتلفتت حولها، فقال الرجل:
- كلا انما أعنيك أنت ذات العينين الرماديتين، أعني صاحبة الفارة.

حدقت تانيا في وجهه، بعينين متسعتين، وعلى صوت مضغ العلك بين أسنانها؟ كان الفأر قد أطل برأسه من وراء كتفها، فابتسم له الرجل الغريب. ورمت تانيا الصمغ من فمها، وسارت مع الرجل إلى مكتب المدير.

قال كوليا:

- من يكون هذا الرجل؟

قال أحد التلاميذ:

- انه في أغلب الظن مفتش جاء فلاديفوستيك. لكن فيلكا هتف بلهجة الوقار:
- كلا انه أحد أبطالنا؟ وثقوا مما أقول فقد رأيت الوسام على صدره.

*

لكن ظنهم كان في غير محله، فقد ظهر أنّ الرجل الغريب هو أديب ولا يعلم إلا الله سر قدومه إلى هذه المدينة في الشتاء بدون جزمته المبطنة باللباد. كانت الجزمة التي يرتديها أسوأ من تلك التي يستعملها العمال عند التنقيب على النفط، إذ أنها مصنوعة من قماش رمادي رخيص، لا يمكنه أن يحافظ على حرارة قدميه لكن كان معطفه طويلاً وسميكاً وكذلك قبعته وقد شوهد وهو يرتديها في نادي حرس الحدود. وقيل أنه مولود في هذه المدينة، وأنه كان قد تعلم في هذه المدرسة بالذات.

هل أراد استرجاع ذكريات الصبا يا ترى؟ كانت الريح التي تهب في وجهه باردة قارصة، لكنها مثل الثلج الذي كسا أهدابه، كانت جزءاً من طفولته، كذلك كان شأن النهر وكان طبيعياً تماما أن يعجبه مشاهدة ارتفاع الأشجار الجديدة على ضفافه، أم لعله ببساطة ملٌ الشهرة فهو مثل تلك الطيور الضخمة حادة العيون التي تحلق فوق الأنهار على علو شاهق طيلة النهار، ثم تحط فجأة فوق أشجار الصنوبر النامية على جانب النهر لتستريح في الهدوء الشامل؟

على أن رأي تانيا كان مخالفاً فقد كانت تعتقد بأنه حتى لو لم يكن غوركي نفسه، فمع ذلك كان أديباً حقيقياً جاء الى مدينتها القصية لتلتقي به هي - تانيا- وربما للتباحث معه؟ ولم يكن الرجل كبير السن، لكن صدغيه رماديين، وكان صوته عالي النبرة وحاداً. ولقد خشيت أن يسألها عما إذا كانت قد قرأت كتبه، أو عما اذا كانت معجبة ببوشكين لكنه لم يزد على أن قال:

- أشكرك يا عزيزتي، وماذا أنت صانعة بفأرتك هذه؟

لم يخرج حديث هذا الكاتب – كما هو واضح- عن الأمور الاعتيادية، لكنه مع ذلك سبب للجميع تعقيدات كثيرة.

فقبل وصوله كان المرح يسود جو الحلقة الادبية التي كانت تقد كل عشرة أيام تحت إشراف ألكسندرا ايفانوفنا، وكانوا جميعا يأخذون مقاعدهم حول المنضدة المستطيلة في غرفة الرواد، وهناك كرسي ذو ذراعين معد لألكسندرا ايفانوفنا، التي تبدو في هذه المناسبات متغيرة عن حالتها الاعتيادية، وكأن سفينة غير مرئية قد حملتها من أماكن بعيدة الى هذا المكان فهي تسند ذقنها الى أصابع يديها، وتندمج في تلاوة شعر الوصف، وحين تنتهي تلتفت الى الطلبة قائلة:

- آه أيها الصغار: ليتني أستطيع ايصال معاني هذه القصائد الى أذهانكم. فباستطاعته الشاعر أن يصنع السحر من مجرد كلمات، أنه يضع فيها ثروة ضخمة من المعاني.

لكن فيلكا كان يتلهف لانتزاع لسانه من حلقه، لأن هذا اللسان الذي يستسهل مضغ أي غير شيء يدخل ما بين أسنانه، كان أعجز ما يمكن عن تذوق الشعر؟ غير أن هذا لا يعني أن فيلكا معدوم الموهبة. فهو يستطيع على سبيل المثال تقليد البائع الصيني الذي يبيع الحلويات في ركن الشارع. وعندئذ يرفع صوته مردداً:

- سأعطيكم قطعة صغيرة صغيرة، وكبيرة كبيرة، قطعة مناسبة جداً مما يجعل رفاقه يستغرقون في ضحكات مجلجلة.

بعد ذلك تقف زينيا لتنشد قصيدة كتبتها عن حراس الحدود وتتبعها تانيا التي تقرأ احدى قصصها، أما كوليا الذي يمتنع عن الكتابة خشية انتاج أدب رديء، فإنه كان يقوم بمهمة الناقد الهادئ والصارم.

لكن كوليا لم يجد ما ينتقده في قصة تانيا، التي كتبتها حول فأرة صغيرة كانت تعيش في كم معطف عتيق. ففي ذات يوم أخرج المعطف من حجرة المخزن التي كان فيها، ورماه في الصقيع. وحين شهدت الفأرة الصغيرة الجليد للمرة الأولى حسبته سكراً ففكرت مع نفسها: "ينبغي للناس أن يخجلوا من أنفسهم اذا يطأون السكر بالأقدام"، ونطت منطلقة إلى الخارج... يا للفأرة الصغيرة المسكينة كيف ستعيش في ذلك البرد؟

اعتبرت تانيا سكوت كوليا عن نقد قصتها مدحاً، ولذلك ظلت طيلة ذلك النهار تشعر بنشوة السعادة، واستمرت على ذلك حتى في نومها. وقالت تسأل نفسها: "كيف أحس بكل هذا السرور لمجرد أن يسكت ذلك الولد الوقح عن انتقاد قصتي؟"

على أن الأحوال تغيرت عند وصول الكاتب، فقد برزت مشاكل جديدة واعتبارات مغايرة.

فعل سبيل المثال اين سيجدون الزهور التي ينبغي لهم أن يقدموها للكاتب؟ إنهم لن يحصلوا على أحد اصناف السرخس، مع كل هذا الصقيع الذي دفنت الأرض تحته بل لقد مات السرخس في مستنقع الغابة بل وهلكت حتى الأعشاب العادية.

لقد بدت المشكلة بلا حل، فتانيا التي لم تبق في حديقتها زهرة واحدة، لم يخطر على بالها أية فكرة ملائمة كما أن الآخرين لم يجدوا مخرجاً من هذ الورطة. وأخيرا قالت زينيا، الفتاة العملية:

- في بيتنا بعض الزهور في الأصص وقد بدأت تتفتح.

وهتفت بقيت البنات مقاطعات:

- وعندنا كذلك.

وبدأ فيلكا يقول: وعندنا ... ثم تذكر أن صاحبة المنزل الذي يسكنه لا تحتفظ في بيتها بأي نوع من الزهور، لكنها كانت تزرع نوعاً من الأعشاب الخاصة التي أصرت كلابه المتوحشة على تمزيقها إرباً إرباً.

كانت نتيجة تلك المحاولات أن جمعت باقة كبيرة من الزهور. ثم كان عليهم أن يبتوا في مسألة أخرى: من الذي سيقدم الباقة إلى الكاتب ويتوجه إلى مسرح "القاعة الكبرى" في المدرسة، الممتلئة بالمدعوين، ويصافح الأديب الكبير قائلاً: بالنيابة عن جميع الرواد الشباب ... ".

صاح فلكا :

- دعوا تانيا تقوم بذلك .

وهتفت الفتيات

- كلا بل زينيا لأنها صاحبة الاقتراح.

كان رأي البنات منطقياً، لكنّ الأولاد اعترضوا جميعاً – عدا كوليا الذي ظل ساكتاً. وحين انتخبت تانيا أخيراً، وضع يده فوق عينيه، فلم يعلم أحد مع أي جانب كان.

قالت الكسندرا ايفانوفنا :

- وهكذا سوف ترتقين المسرح وتذهبين إلى الزائر يا تانيا، وتصافحينه ثم تقدمين إليه الزهور. لقد اتفقنا على ما ستقولينه له، ولن تنسي. والآن ومادام الوقت قد حان، فمن الأفضل أن تأخذي الباقة.

التقطت تانيا الزهور، وضمتها إلى صدرها ثم غادرت الغرفة. وكانت تحس أن هذا التشريف قد عوضها عن كل ما عانته في الأشهر الأخيرة. فلسوف تهز كف

الرجل الشهير وتقدم له باقة الزهر. ومن يدري فربما استطاعت بعد سنين عديدة أن تفخر أمام صديقاتها هي الأخرى بأنها قد رأت شيئاً من العالم.

وتألق وجه تانيا وابتسمت للجميع، ففاتتها نظرة الخبث التي ارتسمت على وجه زينيا التي التفتت نحو صديقاتها وقالت :

لماذا اختاروا تانيا سابانيفا من دون الجميع؟ أهذا حق؟ إني لا اتحدث عن نفسي فلست مغرورة، لكننا نعلم جميعاً أن كوليا أذكى منها كثيراً، وكنت اتصور أنهم سينتخبونه هو. لكن لأنّ الأولاد يريدون تانيا! وأنا أعرف السبب أيضا. ذلك لأن لها عينين جميلتين. وحتى الكاتب قال شيئاً عنهما.

قال كوليا وهو يضحك :

- لم يقل غير أنهما رماديتان ! لكنك على صواب يا زينيا كالعادة. فإن عينيها جميلتان حقاً. وانت تتمنين لنفسك مثلهما ! أليس كذلك ؟

اعترضت زينيا بشدة :

- من، أنا؟ أبدا!

أحست تانيا انها لن تحتمل ذلك دقيقة أخرى، وبدت الأزهار التي تحملها أثقل من الصخور، فتحركت بسرعة، وبدأت تجري إلى أن اجتازت الصفوف ثم القاعة الكبيرة، حيث دلتها حلبة الكراسي على وصول المدعوين، وهبطت السلم مسرعة ثم توقفت وهي تلهث في غرفة المعاطف. لم تكن تانيا قد عرفت فظاعة الحسد، ولا تهيأت له. وسألت نفسها؟ " أصحيح ما تقول عني؟ إذا كان صحيحاً فليس لي أن أكون من الرواد، لا يهمني تضييع هذه الفرصة. بل إن الأفضل أن أفقدها على أن أسمع هذا الكلام ".

في هذا الوقت من النهار، كانت غرفة المعاطف المظلمة بظلالها المترنحة التي تشبه فسحة في غابة، خالية وهادئة، وتستند إلى جدار أبيض مرآة ضخمة تبدو مائلة إلى الأمام، وتهتز قاعدتها السوداء كلما ركض أحد الصبيان خارج الحجرة. كانت المرآة وهي تتمايل على قاعدتها مثل غمامة خفيفة عابرة، تعكس وجوه الأولاد حين يمرون أمامها.

لكن الحجرة كانت هادئة الآن، وبمحاذاة حامل المرآة صُفت قناني الحبر التي نظفها الحارس، ومسحها بعناية. أما الحبر فقد عبئ في ثلاث زجاجات مختلفة الحجم وقد وضعت الكبيرة التي كانت على شكل ورقة فوق الأرض. هل من حاجة

حقاً إلى كل هذه الكمية الهائلة من الحبر، لتستطيع هي – تانيا – أن تغمس حافة قلمها فيه؟

وسارت بحذر حول ورقة الحبر، وتوجهت نحو المرآة، ثم تلفتت حولها ولما لم تر للحارس أثراً، أسندت مرفقيها إلى القاعدة، وقربت وجهها من المرآة. ومن أعماقها أعادت عيناها الرماديتان مثل عيني والدتها – نظرت إليهما، كانتا واسعتين متألقتين وتتماوج في أعماقهما ظلال خفيفة، وكانتا غامضتين لا يمكن سبر غوريهما.

وقفت تانيا بدون حراك، لبضع دقائق، وهي مجفلة مثل وحش الغابة حيث يشاهد انعكاس صورته لأول مرة، ثم تحسرت. كانت عيناها شيئاً عاديا تماماً، وتراجعت إلى الخلف، ووقفت والأسف بادٍ عليها، وفي الحال تمايلت المرآة وكأنها تحاكي حركتها، فتأرجحت زجاجة الحبر الموضوعة على القاعدة، وبدأت تتدحرج مثيرة في تصادمها مع قناني الحبر ضجة عالية.

وبسرعة بسطت تانيا يدها، لكن الزجاجة مثل أي شيء حي، تفادت يدها، واستمرت في حركتها. وبذلت تانيا جهدها لتمسكها، واستطاعت أن تمسكها، لكن الزجاجة انسلت من أصابعها، وهي تتلوى وتنشر سائلاً أسود كالأخطبوط، ثم هوت إلى الأرض محدثة طنيناً مشابهاً لهدير انهيار كتلة من الطين على الشاطئ، وسقوطها في الماء. وحدث لتانيا الشيء الذي يقع لكل فتاة مرة واحدة في عمرها – على الأقل - لقد أراقت الحبر. وصرخت: "ما أفظع هذا!" ووثبت مبتعدة. وهي ترفع يدها اليسرى التي تقبض على باقة الزهر. ولمعت عدة قطرات سود على ورق بعض الزهور. على أن ذلك لم يكن شيئاً. فالأوراق يمكن قطعها ورميها. لكن ماذا تصنع بيدها اليمنى؟ وبيأس شديد رفعتها أمام عينيها ومضت تديرها ظهراً لبطن. كانت سوداء حتى المعصم.

- ما أعجب هذا !

رنت هذه الالفاظ لصق أذنيها، حتى خيل إليها أنها هي التي تلفظت بها. ورفعت رأسها المرتجف. كان كوليا واقفاً بجانبها وهو يحدق في يدها وقال مكرراً:

- هذا أمر عجيب. كيف يمكنك مصافحة الكاتب الكبير؟ بالمناسبة فإنه قد وصل، وهو الآن في غرفة المدرسات. والجميع ينتظرون. لقد أرسلتني ألكسندرا ايفانوفنا للبحث عنك.

جمدت تانيا في مكانها. كانت عيناها اللتان نظرتا قبل لحظة في المرآة بكل ذلك الاهتمام، معذبتين مظلمتين.. أي حظ تعس! ومدت يدها التي تحمل الباقة إلى كوليا. وودت أن تقول له: خذها ولتقدمها زينيا بدلاً مني. إنها تحفظ العبارات المطلوبة أيضا."

وكانت على ثقة من أنه يأخذ الورود، وربما اشترك مع زينيا في السخرية منها لكنها لم تقل شي وإنما أشاحت عن كوليا وبسرعة وبدأت تجري مندفعة بين صفوف المعاطف المعلقة التي راحت تقتفي أثرها مثل سلسة من الشهود الصامتين. وركضت نحو غرفة التنظيف، وبدأت تجهد نفسها في إزالة الحبر من يدها، واستعملت كل ما وجدته هناك من ماء. ثم راحت تمسح بالرمل، لكن عبثاً. فقد بقيت سوداء كما كانت. وفكرت تانيا كالتالي: "لا فائدة سوف يخبرهم بما حدث. إني أعلم انه سيفعل، سوف يخبر ألكسندرا ايفانوفنا وزينيا والآخرين".

وهكذا فلن ترتقي اليوم خشبة المسرح، ولن تقدم الأزهار إلى الرجل المُحتفى به، كما لن يكتب لها أن تصافحه. كان يدهشها سوء طالعها مع الأزهار، مع شدة تعلقها بها. ففي المرة الأولى قدمت زهوراً لصبي عليل، ظهر لها فيها بعد أنه لم يكن غير كوليا، آخر من يستحق زهورها. والآن ها هي تفقد شرف تقديم هذه الزهور الرقيقة المتفتحة التي لا تنمو إلا أصص، إلى الكاتب الشهير، ولو تهيأت هذه الفرصة لأية فتاة أخرى لكانت النتيجة رائعة. أما هي – تانيا – فكان عليها أن تنفض يدها من الأمر كله.

خرجت تانيا من غرفة التنظيف، دون أن تحاول تجفيف يدها، ومضت تسير ببطء وكأنها تائهة. ولم تعد تهتم بالوقت، بل لم تعد تهتم بأي شيء إطلاقاً وارتقت السلالم، ومشت في خطوات متراخية في الممر، كانت تنظر من خلال النوافذ إلى الساحة علها تلمح شجرتها التي تهدئ نفسها في مثل هذه الأحوال. لكن لم يكن ثمة أثر للشجرة، وليس ذلك بالشيء الغريب، فهذه الشجرة تنمو في الجانب الثاني من البناية !

وحين أدارت تانيا نظرها من النافذة. وقع بصرها على الكاتب، وهو يسير في نهاية الممر. كان قد خلع معطفه الثقيل وارتدى قميصاً ذا ياقة قوقازية عالية. وقد ربط من الوسط بحزام فضي رفيع.

كان شعره الفضي في مؤخرة رأسه يلتمع مثل لمعان حزامه الفضي. أما الأزرار التي تزين قميصه فقد عجزت عن عدها لكثرتها.

كان ظهره إليها، وإذ كان يسير مسرعاً. فإن المسافة بينهما ظلت تزداد باطراد ولا شك انه سيستدير بعد لحظة ويدخل غرفة المدرسين، وعند ذاك ستفقده إلى الأبد، وصاحت بيأس باد:

- أيها الرفيق الكاتب!

وقف الكاتب واستدار بسرعة، وكأنه واقف على لولب، ثم رجع متوجهاً إليها وهو يلوح بيديه. ويعقد ما بين حاجبيه محاولاً أن يفهم ما تريده منه هذه الفتاة؟ ترى هل اوقفته لتقدم إليه زهورها؟ وألقى على زهور تانيا نظرة خاطفة، فقد كان معتاداً على مثل هذا التكريم.

سألت تانيا :

- أيها الكاتب أخبرني أأنت رجل طيب؟

انحنى الكاتب نحوها متفحصاً فأعادت السؤال وهي تسير به إلى نهاية الممر. وفي لهجتها تسول:

- كلا أرجوك أخبرني، هل أنت رجل طيب؟

ترى ماذا كان بوسعه أن يجيب؟ قال مرتبكاً:

- ولماذا تريدين معرفة ذلك يا عزيزتي؟
- إذا كنت طيباً فأرجوك أرجوك ألا تقدم لي يدك.
- ولماذا هل اقترفت ذنباً ؟
- اوه. لالا، ليس ذلك ما أقصده. إن عليّ أن أقدم إليك هذه الباقة بعد أن تختم خطابك. وأن أشكرك بالنيابة عن الرواد وسوف تقدم لي يدك. لكني لن أستطيع مد يدي إليك. ذلك أن شيئاً فظيعاً قد حدث لي. انظر .

ورفعت يدها أمام عينيه. كانت يدها نحيلة ذات أصابع طوال وقد تلوثت أجمعها بالحبر.

جلس الكاتب على قاعدة النافذة وقرب تانيا إليه، وأرسل ضحكة مجلجلة. فعجبت تانيا لضحكته العالية إذ كانت أشد غرابة من صوته. لك...هل سيوافق على طلبها؟

وقال أخيرا

- حسن جدا.

ومضى في سبيله محركاً ذراعيه على طريقته الخاصة. كان هذا أطرف ما حدث له خلال رحلته من موسكو. وهكذا لبث طوال المساء في أحسن مزاج. وحين ظهر على المسرح بدا وجهه مبتسماً. وقبل أن يبدأ قرب مقعده من حافة المسرح ليكون قريباً من التلاميذ.

وجلست تانيا في الصف الأمامي. وهي تصغي باهتمام. كانت تشعر بفيض غامر من الشكر والارتياح.

واختار الكاتب مقطعاً حول غلام يودع والده في منظر مؤثر لأن كلا منهما ينطلق في سبيل الواجب. ومن الغريب أن صوت الكاتب الذي بدا مستهجناً في أذن تانيا قبل قليل تغير تماماً حين راح يقرأ. لقد أمكنها أن تسمع فيه دوي بوق رنان، وتفضله على رنين أوتار مهتزة تحت أصابع موسيقار.

وحين أنهى القصة انطلقت من أرجاء القاعة هتافات الاستحسان لكن تانيا لم تصفق بل ظلت تخفي يدها في جيب سترتها. ولا تجسر أن تخرجها. كانت قد وضعت باقة الزهر على حجرها ومضت تراقب ألكسندرا ايفانوفنا منتظرة اشارتها.

ولما هدأت الأصوات وأغلق الكاتب دفتره، وابتعد عن المنضدة أومأت ألكسندرا ايفانوفنا برأسها فنهضت تانيا ويدها ما تزال في جيبها وسارت نحو الكاتب بخفة في أول الامر. ثم تباطأت خطواتها بالتدريج حتى توقفت، وقابلت عيناها عينيه المتألقتين بنظرة هادئة ثابتة، فقالت تخاطب نفسها "لقد نسي الموضوع كله، ماذا سأصنع؟" وشعرت برعشة باردة تدب في ظهرها. وبدأت تتحدث بضعف ويأس:" بالنيابة عن جميع الرواد وتلاميذ المدرسة.. ثم أدركت إنه لم ينس، إذ لم يدعها تكمل عبارتها بل أسرع إليها ممدود الذراعين. ووقف بينها وبين المشاهدين وسحب الزهور من قبضتها ووضعها على المنضدة ثم لف ذراعه حولها. وهبطا من المسرح سويةً فتجمع الصغار حولهما. وتقدمت فتاة صغيرة بجرأة وقالت متسائلة :

- هل انت أديب حقيقي؟ أديب من لحم ودم؟
- حسن. أنا لم أر أبداً أديباً حقيقياً، غير أنك لا تبدو واحد من الأدباء!
- ألا أبدو كذلك؟
- كلا. فقد كنت أحسب الأدباء الحقيقيين سماناً!

انحنى الكاتب امام الفتاة الصغيرة حتى اختفى عن الأبصار بين حشد التلاميذ وكأنما ابتلعته أعشاب كثيفة. ومضوا يلامسونه ويجذبونه وهم يهللون ويصرخون صرخات تصك الآذان إنه لم يشعر بحلاوة الشهرة كما شعر بها اليوم. ورفع يده برهة ليغطي عينيه.

وفي أثناء ذلك كانت تانيا واقفة بهدوء إلى جانبه. وعلى حين غرة أحست بأن أحدهم يجذب يدها التي خبأتها في جيبها. فأطلقت صرخة وتراجعت إلى الخلف، لكنها رأت كوليا يقبض على معصمها محاولاً أن يسحب يدها بكل قوته. فلوت مرفقها لتحرر معصمها من قبضته، غير أنها لم تفلح، واستطاع في النهاية أن يخرج يدها من جيبها. وبدلا من أن يرفع يدها أمام الأنظار كما توقعت، ضغط عليه بكلتا يديه وبشدة. وقال بصوت رقيق:

- تانيا. كم كنت خائفا عليك! لقد خيل إلي انهم يستهزئون بك. لكنك كنت مدهشة.

وأرجوك أرجوك ألا تتشاجري معي. إني أتلهف لمراقصتك في الحفلة المدرسية في عيد رأس السنة.

لم تستطع تانيا أن تبين أي أثر للتهكم المعتاد في كلماته. ووضع يده فوق كتفها وكأن رقصة عيد رأس السنة قد بدأت فعلاً. وأنهما يرقصان الفالتس سويةً حول الغرفة.

تورد وجه تانيا وحدقت بحيرة في وجهه، ثم أشرق محياها وارتسمت على شفتيها ابتسامة عذبة. وإذ زالت مخاوفها ونسيت غيظها السابق منه، رفعت يدها وأراحت ذلك الكتف النحيل الملطخ بالحبر فوق كتفه لبضع دقائق.

وفجأة تقدم فيلكا منهما، وأحاطهما بذراعيه، ومضى يحدق في وجههما متفحصاً، وارتسمت على وجهه المشرق في العادة، نظرة كمد ظاهرة، وقال بصوتٍ عالٍ:

- وهكذا فقد تفاهمتما!

جذبت تانيا يدها من فوق كتف كوليا وقالت وقد ازداد وجهها احمراراً:

- ما أسخف الأشياء التي تتفوه بها يا فيلكا ! كل ما في الأمر أن كوليا سألني إن كان يستطيع الحضور إلى حفلتي غداً. وقد رفضت أولا لكني غيرت رأيي الآن. إنه يستطيع الحضور إذا شاء.

قال فيلكا وهو يتنهد :

- أجل، إني أعرف، فغدا هو يومك. هل لي أن أحضر معي والدي؟ إنه يريد ذلك.

قالت تانيا بسرعة :

- نعم، افعل. وأظن أن الحفلة ستكون لطيفة.

ولمست كم كوليا وقالت :

- وسوف تحضر أنت أيضاً، أليس كذلك يا كوليا؟

لكن فيلكا اندفع بينهما ففرقهما، وتبعه حشد التلاميذ من الطريق نفسه مثل سيل ظل يتسع ويتسع.

*

تحلّ ليلة رأس السنة دائماً بسلام وهدوء، إذ تكون السماء صافية أحياناً وشفافة أخرى. وفوق الضباب يمخر القمر في سبيله المرسوم ضمن دائرة ضخمة تغطي نصف السماء وتفضّل تانيا ليلة رأس السنة على أدفأ ليالي الصيف، ففي هذه الليلة يسمح لها أن تسهر إلى ساعة متأخرة وعلى الرغم من أن عيد ميلادها يقع في تاريخ يسبق هذا الموعد بفترة قصيرة، إلا أن احتفالها بعيد ميلادها مع عيد رأس السنة يكون أدعى إلى السرور.

وفي عيد رأس السنة لا ينام أحد في المدينة. وتجرف الثلوج عن الأرصفة، ليتسنى للناس تبادل الزيارات. وفي منتصف الليل تسمع الأغاني خارج البيوت، وتطرق أقدام المارة الجليد حتى الفجر..

وفي هذا اليوم تتغيب والدة تانيا عن المستشفى. وعند عودة تانيا إلى البيت من المدرسة تصيح وهي مازالت عند الباب :

- صبراً يا أمي. لا تصنعي المعجنات بدوني .

وفي وسط الغرفة تجد والدتها مشغولة بعمل العجينة ويداها الدبقتان تتحركان وكأنهما جناحان. وإذ تقترب تانيا منها تنحني لتقبل جبينها و تقول :

- كل عيد وأنت بخير يا عزيزتي. وآمل أن تكون الحفلة ناجحة. لقد انتظرناك ولم نبدأ العمل بعد.

وترمي تانيا كتبها فوق أحد الرفوف. وتدخل جسمها بسرعة في ثوب قديم لها وهو عمل شاق لأن جسمها الذي يمتلئ خلال السنة، ينفخ الثوب كما تنفخ الريح المواتية شراع السفينة وتحرك والدتها رأسها وهي تنظر إليها وتقول:

- عجبا كم كبرت!

وعلى الرغم من تلوث يدي والدتها بالعجين، فإنها تقبض عليهما، وتحمل أمها قليلاً عن الأرض، وتدور بها حول الغرفة. وتصرخ الوالدة مشفقة:

- سوف تجهدين نفسك.

لكن تانيا لا تشاركها الرأي. فقد كانت والدتها خفيفة الوزن، أخف من حزمة العشب الهش، وتنزل والدتها برفق، وتنظر كلاهما بارتباك إلى ناني (الجدة) التي تراقبهما من الباب وتقول:

- أشد حماقة من أرانب الربيع، كلاكما! لقد نسيتما كل شيء عن العجين.

وبعد هذا تبدأ الأوقات السارة، لأن تانيا هي التي تعد مائدة الحفلة فهي تعصر بذور الخشخاش الأسود، لتستخلص منه عصيراً أبيض شبيهاً بعصير الهندباء. وهي تروح وتغدو إلى مخزن المؤونة طيلة النهار. وكم يبدو مخزن المؤونة مرعباً أحياناً. وفي هذا المخزن يتجمد جميع الطعام المخزون ويفقد هيئته الأصلية تماماً. فاللحم يتحول إلى شيء شبيه بالصخر، ويجب قطعه بمنشار صغير. أما الحليب فيتحول إلى شرائح ينبغي لتانيا أن تحزها بالسكين إلى أن تتفتت إلى خيوط رفيعة، وتتغطى يدها أثناء ذلك بغبار دقيق يحاكي الراتينج. وهناك الخبز الذي غدا عتيقاً مبيض اللون وقد شاخ، وفاحت روائح الموت من مساماته. لكن تانيا تعلم أنه مازال حياً. فلا شيء يموت مادام مخزوناً في غرفة المؤونة. وما عليها إلى تقريب الخبز واللحم إلى النار حتى تعيد إليهما الحياة، فاللحم يسترد طراوته ويفرز سائلاً حاد الرائحة، والحليب يمسي كثير الرغوة، والخبز يبدأ بالتنفس.

وإذ تنتهي الواجبات المنزلية، تمضي تانيا إلى الغابة متزلجة على جليد منحدر، حتى تبلغ بقعة لا يبدو من تحت ثلجها غير نهايات أشجار التنوب الغضة، فيقع اختيارها على تلك الأشجار لأنّ أوراقها الإبرية الشكل أشد زرقةً من أوراق التنوب حين يهرم. وعند هذا تقصها بسكين قاطعة، ثم تعلقها على كتفها وتعود أدراجها إلى الدار.

وتقيم تانيا شجرتها الصغيرة فوق منضدة عالية، ويلذ لها أن تلوك في فمها قطرات الصمغ المترشحة فوق جذع الشجرة، وتنتشي بأريج هذا الصمغ وهو يعبق في أرجاء المنزل.

ولم يكن من عادتهم تعليق الزينة على الشجرة، بل تجدل الأوراق الزرق بخيط ذهبي يتلألأ في ضوء الشموع فيزحف النور الفضي بين الأغصان، وتظهر النجوم الملونة وكأنها تسبح ضمن هالات براقة. ولا شيء سوى ذلك.

ويا له من يوم بهج سعيد. سوف تصل صديقات تانيا وسوف ترحب بهن، وستدير والدتها ابرة الغرامفون الذي استعارته من المستشفى. وليس من داعٍ للقلق، لأن هذا العيد سيكون مختلفاً عما كان عليه دائماً، لأن والدها قادم لزيارتهم أيضاً. ورجت تانيا أن يأتي كوليا كذلك. لكن هل سيفعل؟ وحدثت نفسها: "لقد جرحت شعوره مرة أخرى. لماذا فعلت ذلك؟" إن الأنسان مخلوق غريب... كيف يمكن للفظتين، يتفوه بهما ولد أحمق مثل فيلكا، أن تطفئ فرحته؟ تُوقف الكلمات الدافئة التي تكاد أن تتدفق من فؤاده؟ تنزل الذراع التي امتدت لتعبر عن مشاعر الود؟"

ورنت إلى كتفها حين أراح كوليا يده. لكنها لم تشعر بأثر لمسته. وحين أدار رأسها وجدت والدتها تراقبها، وفي يدها تقرير عن درجات ابنتها، ومستواها الدراسي لم يعد ممتازاً مثلما كان في السابق. لكن رأي الأم كان قد استقر على تجنب إثارة الموضوع في ذلك اليوم. وارتسم التفكير على محياها، حين مضت تحدق بحنان ف يوجه ابنتها، ولم تعد تشاهد غير ذلك المخلوق الصغير الواهن الذي طالما هدهدته على ركبتيها في سالف أيامها .

كانت أمها ترتدي ثوبها الحريري الأسود، وترفع رأسها باستقامة تامة، وعلى ظهرها تتهدل الخصلات المتألقة لشعرها الكثيف. لم يكن في الوجود أجمل أو أحب منها. كيف لا يرى أبي ذلك؟! هكذا كان مجرى تفكير تانيا. ومضت تنفخ على ندف من القطن لحظتها على ثوب والدتها ثم قالت:

- سيكون أبي هنا بعد قليل.
- نعم إني أتوقع حضوره. لقد دعوت ناديا أيضا.

هتفت تانيا دون تفكير:

- أتمنى ألا تحضر.
- لماذا يا تانيا ؟
- نحن لا نريدها.
- لكن ما السبب أيتها الفتاة الحمقاء؟

وبدلاً من الإجابة أمسكت والدتها من خصرها، وشرعت تدور بها حول شجرة التنوب. وخامرها شعور بأن الكبار يخفون أفكارهم أحيانا تماماً مثل الصغار. ولم تتوقف عن اللف حول الغرفة إلا حين بلغ سمعها وقع أقدام في مدخل الدار.

قالت والدتها ضاحكة :

- كفي عن هذا يا تانيا، لقد وصل أبوك.

اندفعت تانيا نحو أحد أركان الغرفة وقالت وقد شحب لونها :

- إنه كوليا.

لكن القادمات كن ثلاث فتيات من زميلات تانيا في فصيل الرواد الذي تنتمي إليه، وتقدمت لترحب بهن. وكان الصقيع قد آذى عيونهن واحمرّت وجوههن من شدة القر، لكن إحداهن بادرت متسائلة:

- هل يمكننا أن نرقص هنا؟

فأجابتها تانيا:

- بالطبع باستطاعتنا اليوم أن نفعل كل ما نشاء، سوف أدير الغرامفون.

وعلا رنين الموسيقى وامتلأت الدار صخباً. ثم وصل والد تانيا ومعه ناديا. وراح يضم ابنته إلى صدره مرة بعد أخرى، ويقدم إليها التهنئة. وقدمت لها تانيا زوجاً من الجزم ذات الفرو، ومعطفاً طويلاً مطرزاً بالخرز. قالت والدة تانيا:

- وأين كوليا؟

أجاب الوالد:

- ذلك الولد العنيد. لقد رفض مصاحبتنا قائلاً إن لديه هدية خاصة ينوي تقديمها إلى تانيا بنفسه.

بعد هذا وصل فيلكا وأفراد أسرته، أبوه وأمه وإخوته الصغار الثلاثة. وقد حضروا إلى المدينة في زلاجة تجرها الكلاب.

اصطف الأولاد الثلاثة بوجوههم السمر أمام تانيا في هيئة طابور، وانحنوا لها باحترام. ألم تكن مضيفتهم؟ ثم أخرج كل منهم، من جيبه منديلاً مطوياً بعناية، ومسح به أنفه. وراقبهم أبوهم مزهواً بحسن مسلكهم، بينما راحت أمهم تدخن بكل هدوء غليونها الدقيق المحلى بالنحاس الذي كان يتوهج تحت ضوء الشموع.

أثار الأولاد الصغار إعجاب جميع الحضور، وغمرتهم تانيا بالقبلات ومضت بين الحين والآخر تتلفت إلى والدتها التي ظلت تتأبط ذراع ناديا وتلازمها طيلة المساء. وبذلت تانيا عدة محاولات للتفريق بينهما، ففي البداية طلبت من والدتها مساعدتها على إمساك معطف الفرو، ثم كان على الوالدة معاونة ابنتها على اقتلاع الجزمة. لكن الوالدة كانت في كل مرة تربت على كتف تانيا وهي تبتسم. ثم تعود إلى جانب ناديا لتواصل حديثها الودي معها. ضج الضيوف مطالبين بالموسيقى. ومضت تانيا نحو الغرامفون وقد سرها أن تعطي ظهرها للجميع ولو لدقيقة واحدة. ثم حركت الأبرة فعم المكان الغناء والألحان والموسيقى.

ولم يأت كوليا. وتساءلت الفتاة: أين يمكن أن يكون؟ كان الهم يعصف بقلبها.

وانضم والدها إلى الراقصين، وكان في شدة المرح، فعلت ضحكات الصغار من حركاته الماجنة، ومضت والدتها تكرر المرة بعد الأخرى:

- فقط انظري يا تانيا، انظري إلى والدك وهو يرقص.

- نعم يا ماما، إنه يجيد الرقص.

كانت تحدق في والدها، لكن أفكارها كانت في مكان آخر. ووجدت نفسها غير مهتمة اطلاقاً برقص والدها، أو بفرح المدعوين، ومع ذلك فقبل قليل كان قلبها يفيض حنواً ومرارة كلما فكرت بأبيها. ما شأنها يا ترى؟ لقد سيطر كوليا على جميع أفكارها. أين يمكن أن يكون؟ في دار زينيا؟ إنهم يحتفلون أيضاً بعيد رأس السنة.

في هذه اللحظة قطعت خواطر تانيا حين تشابكت يد فيلكا بأيدي إخوته الثلاثة، وبدأوا يرقصون. كانوا يتحركون بخفة في حلقة ظلت تتسع دون أن يرفعوا أقدامهم عن الأرض تقريبا. كانت تلك أحب رقصة عند أبناء عشيرتهم، حين يسمرون على رمال الشاطئ تحت ضوء القمر.

ونزولا عند رغبة فيلكا وإخوته انضمت تانيا إليهم وراحت ترقص. لكنها لم تكف – طيلة الوقت – عن اختلاس النظر إلى الباب، وهتف والدها بإعجاب:

- مدهش ! لا ريب أننا سننعم بيوم ممتع. تانيا، اطلبي من والدتك شيئاً من الشراب. فعندي مفاجأة لك.

قالت والدتها :

- لابد أنك جننت أيها الوالد. أنت تعلم أنّ الصغار لا يشربون!
- أعلم أنهم لا يشربون، لكن مجرد قطرة من الخمر لن تؤذيهم.

وردد الصغار مطالبين:

- مجرد قطرة.

أحضرت ناني طبقاً واسعاً عليه قنينة من الخمر المحلي. وجاء بعدها فرولوف. وهو شاب من جنود الجيش الأحمر. يرتدي معطفاً من جلد الغنم. ويحمل بيده دلواً. وارتسمت على وجهه تكشيرة عريضة.

قال والد تانيا :

- فرولوف أيها العجوز، اعرض على الأولاد ما جلبنا لهم.

هرع الصغار إلى الدلو ونظروا في داخلها. لكنهم ارتدوا إلى الوراء خائبين وهتفوا:

- لا يوجد هنا غير الثلج.

قال فرولوف :

- لا تتعجلوا أيها الأولاد.

ومد يده في الثلج وبدأ يخرج برتقالات واحدة بعد الأخرى، فعلت هتافات الفرح تبارك ظهورها.

وهرع الجميع نحو الدلو. لكنهم اعادوا البرتقالات إلى موضعها حالاً، إذ لم يكن بالمستطاع امساكها باليد. كانت كل منها أشد برداً وصلابةً من قطعة معدن دفنت في الصقيع أمداً طويلاً.

قال الوالد ضاحكاً:

- " صبراً أيها الصغار صبراً. ينبغي لنا قبل كل شيء إذابة الثلج عن البرتقال. وبعد ذلك يمكنكم أن تأكلوه. إنه لذيذ...صدقوني." وأخذ برتقالة ووضعها في ماء بارد. وفي دقيقة واحدة اكتسى سطحها بغشاء رقيق من الثلج جعلها تبدو شبيهة بالكرات الزجاجية البراقة المعلقة على شجرة التنوب، ثم كسر الغطاء الثلجي بسكين. ومن بين القطع المفتتة للثلج الذائب في يده. أطلت البرتقالة المدورة، وبدا لونها وأريجها غريبين ومدهشين في هذه الأصقاع الشمالية الباردة، وحين حصل الأخ الأصغر لفيلكا على برتقالة كاملة لنفسه وقف يحدق فيها بدهشة خائفاً أن يأكلها. أما فيلكا فأخذ برتقالته وقدمها لوالده. فقال الصياد وهو ينظر إلى الثمرة الغريبة دون أن يبدو عليه أثر الدهشة:

- أنت الذي تأكلها لأن أصدقاءك أعطوها لك. وهي لن تؤذيك ولو كانت أصغر حجماً لحسبتها ثمرة عليق، واستعملتها لصقل غليوني النحاسي الجديد لأنه يصدأ بسرعة في الصقيع. وأبعد البرتقالة عنه. كان كبير السن ولا يعبأ بأي نبات ينمو خارج غابات وطنه.

وضع فيلكا البرتقالة في جيب جاكيته لأنه شاء أن يتقاسمها مع تانيا. وكان يقاسمها كل شيء. الجذور الحلوة التي كان يحصل عليها في الغابة، عسل النحل الوحشي، لحاء شجر الزيزفون، وبالطبع "عصير النمل "، لكن تانيا لم تكن في المكان. أين ذهبت؟ لقد كان الحزن مرتسماً على محياها طيلة المساء، ترى ما بها؟

ألقى فيلكا نظرة على الغرفة المجاورة فوجدها مظلمة وقد تكدست المعاطف على الفرش. لكن تانيا لم تكن هناك. وحين دخل المطبخ رآها وهي تمر من الصالون إلى الباب الخارجي وقد ارتدت معطفها الفرو، ثم بدأت تشد أشرطة جزمتها الجديدة. تراجع فيلكا. بهدوء، ووقف خلفها، ليمنع الحاضرين من مشاهدتها وهي تغادر الدار.

كان الهواء في الخارج يهب مرتفعاً عن الأرض دونما اتجاه ويتحول إلى سحب خفيفة تسبح في السماء الشفافة، وأطل قمر بارد صغير كئيباً بين سحاب كان شبيها بزجاج نفثته أنفاس دافئة.

سارت تانيا بحذر فوق الجليد. خشية أن يسمع أحد وقع قدميها. وانهمرت ندف الثلج فوق كتفيها ووجهها، ومسحت شعرها بأصابعها. ثم اندفعت عبر الشارع إلى منزل زينيا الذي كان مغموراً من جميع جوانبه بركام الثلج.

وجلست القرفصاء على الجليد مترددة إذ خجلت أن تحدق من خلال النوافذ. ثم تسلقت كومة من الثلج وجثمت فوقها، وهكذا صار مستوى بصرها موازيا للنافذة.

كان الوهج الصادر من الشموع المتقدة فوق شجرة التنوب ضبابياً أبيض مثل نور القمر. وحول الشجرة كان الأولاد يروحون ويغدون، وكانت ظلالهم تجتاز عيون تانيا المحدقة خلال الزجاج فيخيل إليها أنها ترى كوليا في كل شخص.

والتهب وجهها من لذع البرد، لكنها مضت في بحثها. كانت الظلال تسبح عبر النافذة وكأنها تبحر في مملكة مائية مظلمة. ولم يثبت بينها غير ظل واحد، كان ذلك شبح سمكة ضخمة ذات ذيل متدلٍ إلى أسفل. وهو أشد دكنة من بقية الظلال. ثم تحرك الشبح هو الآخر وراح يتلو في حركة صاعدة هابطة.

ارتعبت تانيا وفكرت ماذا يمكن ان يكون هذا الشيء؟ وحين جمعت شتات أفكارها قالت متذكرة: "أوه، لابد أنها السمكة الذهبية التي تحفظها زينيا في الدورق على حافة النافذة „.

وامتدت ذراعان سمراوان نحو الدورق، فاختفت السمكة وتلاشى المنظر السحري الذي سلب لب تانيا إذ كان ظهر أحدهم قد ظلل النافذة كلياً.

*

بعد ليلة رأس السنة، عادت الأمور إلى مجاريها، وكانت والدتها قد غادرت الدار إلى المستشفى، لكن حتى هذا، لم يكدر صفوها. كان فؤادها يطفح سروراً ونفسها راضية. وأحست بأنها تكاد تطير.

وسألت نفسها ما الذي يجعلني أشعر هكذا؟ أهي العطلة؟ أم أنني أحب؟ إن زينيا تتحدث عن الحب دائماً وبلا حياء أيضاً، حسن، ليس من بأس أن أعرف الحب. واليوم سأراقص كوليا في الحفل بالرغم من كل شيء. وسأذهب إلى حلبة التزحلق، ولن أقف في طريقهما أبداً. سأختبئ خلف ركام الثلج، وأراقبهما. فإذا ارتخى أحد أشرطة قبقابه فسوف أخرج إليهما وأشده له بيدي هذه. نعم ذلك ما سأفعله.

تتابعت هذه الأفكار في رأس تانيا عند تناولها طعام الإفطار وكانت عيناها تبرقان. وبدت كل حركة من حركاتها، وكأنها تجربة جديدة بهيجة.

وأخرجت قبقاب التزلج، وربطت أشرطته، ثم قذفت بقطعة من الحلوى إلى (النمر). وأمرته أن يتبعها.

بحث (النمر) عن الحلوى في الثلج حثيثاً، لكن تقدم السن أفقد الكلب رهافة الحس، لذلك ترك الحلوى يائساً من العثور عليها، وتبع تانيا وهو يدري أن تضحيته هذه لا جدوى منها.

قضت تانيا ساعة كاملة عند الحلبة مختبئةً ومعها (النمر). لكنها لم تشاهد أحداً على الإطلاق. على أنها انتبهت فجأةً إلى ما يحدث أمامها في النهر. كانت ثمة علامة تنذر بخطر قادم. فمن بعيد هبت الريح تزحف عالياً فوق الأشجار ماسةً الشواطئ مساً خفيفاً، وراحت تجرف الثلوج من الصخور وهي تصفر.

وإذ لم تجد تانيا فائدة من البقاء في حلبة التزلج عادت أدراجها و (النمر) خلفها.

لكنهما ما كادا يبلغان أعلى الطريق خلف أكواخ الصيادين حتى شاهدا كوليا وكانت زينيا معه، وهو يعينها على الانزلاق فوق المناطق الثلجية التي سقلتها أقدام أولاد الصيادين فلم يعد السير عليها ممكناً، وكان بيد كل منهما قبقاب التزلج.

سلكت تانيا شارعاً فرعياً واختبأت خلف أحد الدور بعد ان غرزت قبقاب التزلج في كومة من الجليد. وأقعى النمر بجانبها ومضى يحدق في وجهها، محاولاً أن يفهم ما كان يجري.

ومر بهما كوليا دون أن يراها. ولم تتحرك تانيا. وتشنج النمر وبدأت مخالبه تهتز إذ تذكر رائحة عظام الدجاج التي عوده كوليا أن يقدمها له ووبخه ضميره على الخداع. فاندفع يجري نابحاً. وأتجه يجري إلى كوليا الذي استدار بسرعة وقال متعجباً :

- أنت هنا أيها النمر؟ وأين تانيا ؟

كانت تانيا موجودة أيضا. فقد خرجت من خلف الجدران ووقفت أمامه. بعد أن صار الاختباء غير مجدٍ. كان وجهها في مثل لون القرمز. ولم يكن الاحمرار عائداً إلى الرياح الشرقية التي كانت تهب عالياً منذ الصباح.

قالت آمرة:

- تعال هنا أيها النمر.

تقدم كوليا إليها وقال :

- لقد كنت تتزلجين إذن، بينما تصورتك مع فيلكا تشاهدين حفل الموسيقى.

وقفت تانيا بلا حراك وهي تشيح بوجهها، وحاولت عبثاً أن تتحدث بلهجة رسمية، لكن صوتها خانها حين قالت :

- لم أكن أتزحلق، ألا ترى أني لا أحمل القبقاب. أما عن فيلكا ونفسي فنحن ذاهبان سوية إلى الحفل بالفعل.

نظر كوليا إليها، ولما لم يجد في يدها القبقاب قال :

- نعم إنك لصادقة، حسن. تعال هنا أيها النمر.

لكنها صرخت به:

- لا تتحرك أيها النمر.

لبث الكلب في مكانه رغم أن رأسه كان مليئاً بذكريات عظام الدجاج الشهية وجثم بجانب تانيا. ولعله كان يحاول العثور على مخرج من ورطته. وفجأة اندفع إلى الطريق الجانبي متذكراً- فيما يبدو- مسألة عاجلة تهمه هو. وأسرعت تانيا خلفه، وهي تحاول جاهدة ألا تنظر خلفها .

وقالت مخاطبة نفسها: "لن أختبئ بعد اليوم من كوليا خلف المنازل أو وراء أكوام الثلج، ولن أشد له أشرطة قبقابه. إن كل ذلك عبث لا طائل تحته."

كانت الحياة بكاملها ما تزال أمام تانيا. وعزمت على ألا تعاود التفكير في كوليا. ان تمسح حتى ذكراه من خاطرها. ألم يكن لديها مباهج أحلى من عبء التفكير به؟

لقد كانت قبل عهد قصير تعرف مباهج بسيطة كثيرة، كان منها صيد السلمون في النهر، وكان منها الوقوف جنباً إلى جنب مع الأصدقاء والجميع يصيحون السمع إلى بوق الحوالة. لابد أن فيلكا ما زال حتى الساعة ينتظرها في المدرسة، أما بقية الأصدقاء فهم بالتأكيد محتشدون عند البوابة. وكم كان يسرها التحديق فيما حولها بكسل وتراخ، دون أن يشغل بالها هم، وكم تأملت المدينة التي ولدت فيها، المدينة التي كانت – في حد ذاتها – مصدراً من مصادر السعادة.

لقد كانت صغيرة – مثلها هي – لكنها كانت أنيسة بجبالها وغاباتها الداكنة الدائمة الخضرة. ففي الربيع تحلق النسور في أعالي الفضاء وهي تحدق فيها مفتونة بجمالها. وتحتفظ المدينة بجمالها حتى في هذا الفصل البارد.. الشتاء. وليست جميع مباني بلدتها من الخشب بل إن الجسر والمدرسة، وبعض البنايات الحديثة قد شيدت بالحجر. وهناك عدة شوارع عريضة، داخلية وخارجية. وفي الليل والنهار يدوي صوت المكائن والآلات في جوف الغابة وهي تدور قاذفة بدخانها، الذي يتكور ملتفاً فوق ذرى أشجار الأرز، وتشتد حركة السيارات في الشوارع. وللسيارات سلاسل من حديد، تمنعها من الانزلاق على الجليد حين يروم سائقها ايقافها، أما الثلج الزلق فلا ينفع ولا يضر، لكنه يهبط على كل حال، وليس ثمة سبيل لمنعه.

وبلغت تانيا مدرستها فوجدت البوابة مفتوحةً، وادهشها أن ترى معظم الطلبة والطالبات يغادرون المدرسة بدلاً من أن يدخلون إليها. كانوا يجرون مسرعين وحين يصلون إليها يرددون بضع كلمات لم تستطع أول الأمر أن تفهم مضمونها.

كانوا يصرخون:

- الإعصار قادم، الإعصار! لن يكون هناك أية حفلة موسيقية.

ورأت الآباء والأمهات يصطحبون صغارهم عائدين بهم إلى بيوتهم.

وخرجت الكسندرا ايفانوفنا، ومعها أصغر تلميذة وأصغر تلميذ في المدرسة.

ألقت تانيا نظرة على ما حولها، ثم رفعت بصرها إلى السماء التي كانت منشقة إلى نصفين، أحدهما أزرق والثاني أسود وكان القسم الأسود يبدو مثل جدار

مستقيم سميك. أما العلم المرفوع فوق برج المراقبة فقد كان يرفرف في الهواء باستقامة وكانه وتر مشدود.

كانت العاصفة الثلجية تتحرك فوق المدينة لكنها ما تزال مرتفعة ولم تمس الأرض بعد، ووضعت تانيا أصابعها فوق عينيها، ومن خلالها مضت تحدق في السماء، كانت تزداد عتمة وظلاماً في كل لحظة. وحدثت نفسها وقد استولى عليها قلق شديد:"سيكون الإعصار هنا في أية دقيقة، بينما كوليا وزينيا في الخارج عند النهر"، وصرخت ألكسندرا ايفانوفنا:

- إن إعصاراً يهب على البلدة، عودي إلى منزلك يا تانيا واطلبي إلى كل من تقابلين في طريقك أن يفعل ذلك، لكن تانيا أجابتها قائلة:
- إني لا أخشى الإعصار، وأود ان أقدم إليك المساعدة. دعيني أوصل الفتاة الصغيرة إلى منزلها.
- إنها تسكن في منطقة بعيدة. عند النهر.
- لابأس بذلك إني أعرف المنزل.
- حسن جداً إذن، يمكنك ان تأخذيها معك. سأصطحب الولد الصغير إلى منزله. وأضافت بشيء من الخوف:
- عودي إلى منزلك بعد ذلك بسرعة.

وسارت تانيا بالصغيرة حتى بيتها، وبعد ان سلمتها بيد أمها، استدارت تبحث عن كوليا، وحين بلغته وجدته جالساً يائسا عند حافة حلبة التزلج وهو يرتدي قبقاب التزلج بعد أن التوت قدمه ولم يعد قادرا على المشي. حاولت ان تحذره من قرب هبوب العاصفة، فقال بعناد:

- لست خائفاً من عواصفكم العتيدة. وإذا كنت قد ظننت أني خفت من نهركم، وجبنت عن انقاذ القطيط فذلك شأنك، ويمكنك أن تفكري كما تحبين. بل يمكنك الآن أن تتركيني وتعودي إذا كنت خائفة.
- كلا لست بخائفة من العاصفة، ولكنني قلقة عليك إني أعرف مدى الخطر. ولن أتركك.

قالت هذا وجلست على الجليد بجانبه، ومضت تحدق في وجهه بحنان لم تحاول إخفاءه هذه المرة. كان وجهها ينم عن شدة القلق.

أحنى كوليا رأسه وقال :

- كان يجب أن أكون الآن في البيت. فقد وعت بابا بأني سأعود مبكراً. وهو لا يعلم بمكاني.

مضت تانيا تكرر :

- ماذا يمكنني أن أصنع؟

وصرفت نظرها عن كوليا. وشرعت تنظر إلى النمر مفكرةً... كان الكلب واقفاً يرتعش من قمة رأسه إلى أسفل رجليه في الثلج التي تدور بندفه الرياح. وفجأة قفزت على قدميها. كان على وجهها تعبير جديد من الأمل.

وزحفت السماء هابطةً فوق الجبال، وتعلقت مثل الدخان في الوديان. وبدأ السواد يقترب من المنحدرات رويداً رويداً. لكن القوة العظمى للرياح لم تكن قد وصلت بعد، ولم تهطل الثلوج بعد. كانت العاصفة تعلن عن نفسها.

وقالت تانيا :

- مازلنا نملك الوقت. إن لدى فيلكا مجموعة من الكلاب. وأنا أحسن قيادتها. سوف أذهب لأحضرها. وربما نجحنا في مسعانا قبل انفجار الإعصار. انتظرني هنا. وسآخذك آمناً إلى الوالد في البيت. لا تخف، سوف يبقى النمر معك ولن يتركك.

أجلست تانيا (النمر) على كومة من الثلج، وأعطته يدها ليلعقها. ثم انصرفت فبقى مكانه، يحدق بترقب في الأفق حيث شرعت الريح تضرب الثلوج، وتهز الغابات فوق الجبال.

جرت تانيا ورأسها محني إلى أسفل، وجسدها يشق الريح شقاً وراحت تقطع الشارع المغمور بالثلوج. كانت البوابات جميعاً قد أغلقت ماعدا بوابة فيلكا الذي وصل تواً مع أبيه في الزلاجة التي تجرها الكلاب. ورأته تانيا واقفاً في مدخل الدار يزيل الثلج عن قبقابه. لكنه تراجع مذهولاً حين وجد تانيا واقفةً بجانبه وهي تلهث. كانت الكلاب ما تزال مشدودة إلى الزلاجة. وقد رقدت في الساحة عند البوابة. وكان السوط ملقى على الأرض بقربها.

اختطفت تانيا السوط ثم استوت جالسة فوق الزلاجة فارتعب فيلكا وصرخ :

- ماذا تصنعين يا تانيا؟ احذري، إن الكلاب خطرة.

- أعلم أعلم ذلك يا فيلكا يا عزيزي. ولكني مضطرة إلى إعادة كوليا لأهله حالاً. لقد رضَّ قدمه أثناء تزلجه على الجليد، وسوف أعيد إليك الكلاب رأساً. ليست الشقة بعيدة، وسأتخذ طريق النهر .

ولوحت بالسوط صائحةً بالكلاب بلهجة قبائل الشمال. وبأسرع من لمح البصر وثب الكلاب مجتازة البوابة إلى الخارج.

وعندما استطاع فيلكا أن يضع قبقابه في قدمه، ويجري إلى الشارع كانت الزلاجة قد ابتعدت لكنه ركض خلفها صائحا لأعلى صوته :

- هناك إعصار قادم. أين تذهبين ؟ انتظريني.

لكن هتافاته لم تبلغ أذني تانيا التي كانت حينئذ مستويةً فوق المزلجة، وقد انفرجت ساقاها مثل صياد حقيقي، ورفعت السوط وهي على أتم استعداد، ومضت تحث الكلاب بدربة ومهارة، فتنصاع لأوامرها رغم عدم اعتيادها على صوتها.

وقف فيلكا في موضعه فضربت الرياح كتفيه وقذفت به على الأرض. لكنه لم يستدر راجعاً وإنما جثم بقبقابه على الثلج، وراح يفكر في الذي حدث، وفي تانيا وفي نفسه. وفجأة وثب متخذاً طريقاً يؤدي إلى المعسكر، والريح تضرب وجهه.

وفي أثناء ذلك وصلت المزلجة بتانيا إلى الحلبة، فغرزت السوط بقوة بين بكراتها، وأوقفتها قرب كوليا. وفي الحال تمددت الكلاب على الثلج وهدأت.

وقف كوليا على قدميه مترنحاً، وابتسم رغم الألم في رجله، وبدأ على محياه السرور إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها مزلجة تجرها الكلاب. وقال وهو ينظر إلى المزلجة الخفيفة وإلى الكلاب ذوات الذيول القصار حين راحت تلمس الثلج :

- لم تكن تلك فكرة رديئة. إن هذه الكلاب غير شرسة ولا تبدو شديدة القوة كما ادعى فيلكا. ثم إن حجمها عادي.

غير أن تانيا التي خبرت الكلاب، وأدركت مقدار شراستها، وعرفت مشقة ضبطها، لبثت واقفة عند المزلجة على أهبة الاستعداد، ولم تترك مكانها إلا مرة واحدة، حين أعانت كوليا على الجلوس في المزلجة. بعد ذلك رفعت النمر الذي كان يرتعد من البرد، وضمته إلى صدرها ووثبت إلى المزلجة، وهي تجأر صارخةً بالكلاب أن تبدأ مسيرتها. كانت تتصرف بثقة تامة. وتتفحص الطريق الذي غطاه

الثلج بحذر وانتباه، لكنها حالما تلتفت إلى كوليا تفقد كل شجاعتها، ويتضرج وجهها حياء.

وذهل كوليا لشجاعة تانيا، وحدق في العينين اللتين ابيضت أهدابهما بالثلج، وتألقت فيهما نظرة متلهفة. وشعر بأن كيانها كله يعبر عن شيء غريب جديد تماما. لقد خيل إليه أن كلا منهما قد وُلد من جديد في مزلجة خفيفة يسحبها فريق من الكلاب المتوحشة وهي تجري بهما إلى أرض بعيدة مجهولة لم يسمع بها من قبل.

وتشبث بمعطفها ليمنع نفسه من السقوط من المزلجة. وهجم الإعصار واجتاح الطريق، وتقدم الجدار الأسود فأخمد كل ما تبقى من نور، ومضى يعصف كالرعد، وصُمَّت أذنا تانيا، وفيما هي كذلك، لاح لعينيها شبح حصان يعدو بجنون في الطريق باتجاههما، وكأنه يحاول انتزاع نفسه من الجدار السميك الهادر ولم تستطع أن ترى الراكب في العربة التي يجرها الحصان، ولكنها أحست فجأة بأن الكلاب تنحرف بعنف عن خط سيرها، وصرخت صرخة تحذير مخيفة، ولم يعرف كوليا ما الذي جعلها تصرخ ذلك الصراخ الوحشي. لكن تانيا كانت تعرف جيداً. وذلك أن الكلاب لم تعد تحت سيطرتها.

ورفعت السوط كما يرفع الرمح الثقيل ووضعت كل قوتها في عضلات ذراعها ورمت السوط على الأرض فانغرز عميقاً في الثلج وانكسر. ثم التفتت إلى كوليا، فأفزعته نظرة الرعب المرتسمة على وجهها وسمع صرختها :

- أمسكني بقوة.

وعند هذا رفعت النمر عالياً فوق رأسها، وقذفت به إلى الطريق، فسقط في الثلوج، وهو يعوي محتجاً. لكنه فهم بعد ذلك ما يراد منه، فوثب يسابق فريق الكلاب وينبحها بشدة. وأنطلق كالسهم أمامها وكأنه يستعجل قدره هو. وعندما راغ عن الطريق اندفعت الكلاب تعدو في إثره بشراسة.

وبكت تانيا (يا كلبي المسكين.. يا نمري الحبيب) كان يخوض ثلج الحقل وثباً، فيغوص فيه تارةً، ويخرج منه لاهثاً طوراً. وربما كان يلعن الحظ على ساقيه القصيرتين، ورقبته الطويلة الواهنة. لكنه يحب هذه الفتاة فقد لعب معها منذ كان جرواً وقد كبرا سويةً، غير أن الحياة لم تكن عادلة. إذ رانت عليه الشيخوخة، وبقيت سيدته في مستهل الصبا.

وجثم مجهداً على الثلج، وأنتظر الموت وسمعت تانيا عويل كلبها، وخشخشة حلقه، وفرقعة أنياب الكلاب التي غطت حتى على عصف الريح، فأمسكت بالمزلجة

بيد متشنجة لكن المزلجة انقذفت فجأة إلى أعلى في الهواء محدثةً ضجة عظيمة ثم سقطت على الأرض مقلوبة.

قبضت تانيا على إحدى البكرات، وومضت السماء ببرق خاطف فعميت لحظة وتعلق الحبلان اللذان يربطان الكلب بالمزلجة، بنتؤ ثلجي، فانقطعا ولهما هسيس شبيه بفحيح الأفعى: وإذ وجدت الكلاب نفسها حرةً، انطلقت تعدو إلى الأمام متغلغلة في أعماق العاصفة.

رقد الثلاثة على الأرض: تانيا المتمددة قرب المزلجة، وكوليا الذي رمى نفسه على الأرض، والنمر الذي تمزق بلعومه، واتجهت عيناه الميتتان إلى السماء.

كان كل شيء ساكناً عدى الثلج الذي ظل يصفر، والريح التي مازالت تهدر فوق النهر.

وكانت تانيا أول من يثب على قدميه، فوقفت وعدلت المزلجة ثم انحنت إلى الأرض لمساعدة كوليا. كانت حركاتها سريعة وواثقة وقوية كشأنها دائماً. ولم تفقدها السقطة صوابها، وبدأت تمسح الثلج عن وجهها بهدوء وكأن شيئاً لم يقع.

غير أن رجل كوليا انثنت من تحته.

قال وقد بدا الخوف على صوته:

- لقد ضعنا. أي ذنب جنيتُ يا تانيا ؟

وامتلأت عيناه بالدموع سرعان ما جمدت فوق أهدابه. وضعف جسده وكاد أن يهوي إلى الأرض لولا إسناد تانيا التي هتفت صائحة:

- كوليا يا عزيزي إننا لن نموت، وسف نكون بخير. كل ما علينا ألا نبقى في مكان واحد حتى لا نتجمد... ويجب أن نواصل الحركة. هل يمكنك أن تسمعني يا كوليا؟

وراحت تبذل كل طاقتها لإقناعه بالوقوف على قدميه، وأحاطته بذراعها فوقفا وكأنهما متعانقان، وحجبتهما العاصفة بين طياتها الثلجية، وأصيبت أذنا كل منهما بالصم من هديرها الراعد. وسحبت تانيا العربة بقدميها. فصرخ كوليا :

- لا لا ! لن أدعك تجريني. لستُ طفلاً.

وشرع يقاوم ليتخلص من قبضتها. لكن تانيا أمسكت برقبته فتلامست خداهما الباردتان، ومضت تتضرع إليه مرددةً الكلمات ذاتها مرةً بعد اخرى، رغم أن كل

لفظة كانت تقتضي مجهوداً كبيراً لأن الرياح كانت تطمس كل صوت يخرج من بين شفتيها. وراحت تكرر:

- سوف نصل إلى هناك. سنوفق إلى ذلك. إن المسافة غير بعيدة عجِّل يا كوليا. يجب ألا نضيع دقيقة واحدة.

وأخيراً رضخ وأخذ مكانه من المزلجة. ونظفت تانيا وجهه من الثلج بوشاحها. وتفحصت كفيه وأحكمت شد قفازيه عليهما. ثم امسكت بطرف الحبل المقطوع وبدأت تسير إلى الأمام متعثرةً، وهي تسحب المزلجة خلفها .

وتزايد هطول الثلج وتقدمت اكوام الوفر المتراكم نحوها في كتل سدت الطريق، لكنها استمرت تسير وتتعثر منحنيةً إلى أسفل إذ كان عليها أن تتقدم مهما يحدث. وكافحت الضباب المتكور الذي صار يلتصق بثيابها وكأنه غلاف نبتة متسلقة. كان الجو حالكاً والهواء مشبعاً بالثلج، وبين الحين والحين كانت تتوقف لتعود للمزلجة، وتهز كوليا لتجعله يقف على قدميه، متجاهلةً أناته وتوسلاته، وتجبره على التمشي بضع خطوات. كانت تلهث وقد تقطعت انفاسها وابتل وجهها وتغطت ثيابها بالجليد. ولم يبق لديها أية فكرة عن موقع البلدة، أو شاطئ النهر والسماء. إذ اختفى كل شيء بعد أن ابتلعه الضباب، لكنها ظلت تغذ السير، غافلةً عن الزمان. ورأسها منحنٍ إلى أسفل. وقدماها تتلمسان الطريق. وبدا العرق يتصبب من ظهرها وكأنها في ذروة الصيف. وفجأة اخترق العاصفة طلقة بندقية.

خلعت تانيا قبعة الفرو ووقفت تتسمع ثم هرعت إلى جانب كوليا وراحت تحاول اقناعه على الوقوف، ومع أنها كانت تصرخ بأعلى صوتها، إلا أن صيحاتها لم تعلو على خشخشة رقائق الثلج وسألته :

- هل سمعت يا كوليا ؟ إنها بندقية المعسكر. لابدّ أنهم يبحثون عنا

أحنى كوليا رأسه بفتور إذ كان الخدر قد بدأ يزحف إلى أعضائه جميعاً.

عزمت تانيا على ترك المزلجة، فتقدمت من كوليا، ولفت ذراعه حول رقبتها بينما أحاطت خصره بذراعها هي وبدأت تسحبه، مجبرةً إياه على تحريك قدمه. واستدارا إلى اليسار، فبلغت مسمعيهما طلقة أخرى كانت أعلى من الأولى، ورنّ صداها فوق النهر.

وتقدمت تانيا إلى الأمام وهي تدافع الريح، وتبارك قابلية رئتيها اللتين تحملتا ضغط العاصفة، وبقيتا تعملان رغم كل شيء. وتهنئ ساقيها اللتين حملتاها كل هذا الوقت، وعلى قدرة ذراعيها اللتين وفقتا إلى إمساك صديقها بكل ثبات. لكن بين

الحين والآخر كان يعاودها فزع مبهم، إذ تحس بانها وحيدة تماماً في عالم شاسع من الريح والثلج.

وفي هذه الأثناء كان حرس الحدود يتجهون مزلجين نحوهما، مخترقين العاصفة. كانوا يتحركون في سلسلة مغلقة منتشرةً على مساحة واسعة، ويربط بين أفرادها حبل طويل. وهكذا واجهوا العاصفة دونما خوف.

لقد لاقوا الضباب الكثيف، والكتل الثلجية، والرياح الباردة ذاتها. لكن الرجال تغلبوا على تلك المشاق بسهولة، دون أن يهدروا طاقاتهم. وبالتدريج اقتربوا إلى المكان الذي وصلت إليه تانيا. لكن أحدا منهم لم يرها، ولا رأتهم هي حتى حين كانوا على مدى خطوتين منها. كل ما كانت تعلمه أنها تواجه الإعصار وحدها، وكوليا يتعلق مترنحاً بذراعها. كانت قطرات العرق المترشحة على محياها تتحول حالاً إلى جليد وفقدت كل قواها، وكانت كل عصفة رياح تدحرجها على الأرض، وفي كل مرة تقوم من موضعها مستميتةً لتعاود المسير.

وفجأة اصطدم مرفقها بشيء شبيه بالحبل فتعلقت به، وهي تحسبه من حبال المراكب المتجمدة عند الشاطئ القريب. لكنها حين تلمسته لم تستطع ان تكتم صرخة الاستغاثة التي ندت على شفتيها. وبصورة غير متوقعة لمست أصابعها معطف أبيها. لم تكن ثمة علامة مرئية تبشرها بوجوده.

لأن عينيها اللتين أعماهما الثلج لم تعيناها على تبينه، لكن قلبها الحنون الذي ظل ينشده طويلاً أخبرها بأنه موجود هنا بجانبها في هذا الضباب، هذا الظلام، هذه الصحراء الباردة التي هددتها بالموت والفناء وهتفت :

- بابا ! بابا !

وجاءها الجواب :

- أنا هنا.

وغمرت الدموع وجهها المرهق الذي شوهه الألم والإعياء، ودفعت كوليا نحو أبيها وهي تنتحب عالياً. وقالت :

- إنه حي.

وارتمت عند ركبتي والدها ومسحت عليها جبينها.

وجثم الوالد على الثلج وخلع معطفه السميك ولفه حول الصغيرين اللذين ارتاحا على صدره.

ترى ماذا أصابه؟ إنه هو الآخر يبدو منتحباً. كان وجهه الذي أفسده الحزن مثل وجه تانيا مبتلا بالدموع. أكانت دموعا أم هو الثلج الذي بدأ يذوب تحت قبعته الدافئة؟ قال بإيجاز:

- فيلكا هو الذي أخبرنا!

رددت تانيا هاتفة :

- فيلكا...فيلكا!

وتجمع الرجال حول الكولونيل وصغيريه ثم هزَّ الوالد الحبل. وفي الحال بدأ رجال الجيش بالتقدم الواحد بعد الآخر خارجين من الإعصار مثل غمامات بيض من الثلج. كانوا بأجمعهم يقبضون على الحبل بقوة، ولم يتركوه لحظة واحدة .

وكان آخر من ظهر منهم : (فرولون) الذي غطته العاصفة بالثلج من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. قال :

- لقد عثرنا عليهما. أخبرتكم اننا لابد أن نعثر عليهما.

وسمعت طلقة أخيرة من المعسكر.

*

انطوى اليوم الذي ربحت فيه تانيا معركة الحياة ضد العاصفة والإعصار، اليوم الذي قاتلت فيه ببسالة فانتصرت انتصاراً مزدوجاً. إذ كسب والدها قلبها حين وجد الطريق إليه بدون أن يهديه إليه أحد. وكان أن عاد الدفء إلى القلب الحائر الحزين.

وفي فجر اليوم التالي تغيرت الريح لتكف عن الهبوب إلى أمد طويل. وران السكون على النهر والجبال وعلى عالم تانيا بكامله. فقد كنست الرياح ندف الثلج من أشجار السرو والصنوبر، وعادت الدكنة إلى الغابات من جديد. ومع خمود العاصفة هدأت نفس تانيا، ولم تعد نظراتها تسرح بعيداً بحثاً عن مشاهد جديدة أو أماكن مجهولة.

وتأذى وجه كوليا وأذناه بالبرد أثناء الإعصار فمنع من مغادرة المنزل حتى يسترد عافيته، لكن تانيا وفيلكا كانا يعودانه يومياً وكثيراً ما تغديا معه.

ولم تعد مشاركتها أسرة والدها الغداء فرضاً قاسياً مثلما في السابق، ذلك أن أباها غير أسلوبه معها أثناء الطعام إذ تركها تأكل كل ما تشاء. كذلك خففت تانيا من مبالغتها في الترحيب بها عند الباب. وبدا حتى الخبز أشهى طعماً مما كان.

كذلك تغير شعور تانيا نحو ( نطاق) والدها المطروح دائماً على الأريكة. إذ صار من رأيها الآن أن تلبسه على خصرها كلما زارت والدها.

إنها لم تذق أبدا مثل هذه السعادة. لكنّ أيام العطل لا تدوم، ومنذ أيام عادت تانيا إلى دوامها المدرسي.

كانت تحب أن تتأبط كتبها، وترفض استعمال محفظة كتب، وقبل أن تخلع معطفها في غرفة المعاطف كانت ترمي كتبها على المنضدة تحت المرآة الكبيرة.

وفي هذا اليوم رمت بكتبها على المنضدة كالعادة ثم نظرت إلى المرآة. وهو شيء طالما تجنبته. لأن هذه كانت ذات المرآة التي عاقبتها كل تلك العقوبة ذات مرة.

لكن تانيا لم تحدق في وجهها أو عينيها اللتين كانت تطوف في أعماقهما ظلال رقيقة، وإنما راحت تنظر نحو شيء لا علاقة له بنفسها. كانت تنظر إلى حشد من الطالبات والطلاب الذين أعطوا ظهورهم إلى المرآة.

قالت زينيا التي كانت أقربهم إلى الحائط :

- ينبغي أن تطرد من زمرتنا من أجل هذا.

أيد الولد السمين الذي وصل إلى البلدة مع كوليا في نفس اليوم قولها.

وردد:

- نعم يجب طردها .

ولم تعرف تانيا من هي المقصودة بهذه الكلمات، ولم تحاول الانضمام إلى زملائها إلا بعد دقائق. وعندئذ تنبهت إلى الجريدة المحلية التي كان الطلبة يشيرون إليها. وسألت :

- ماذا هناك؟

وحين سمع الأحداث صوتها استداروا ملتفتين إليها، لكنهم عادوا وأشاحوا عنها بوجوههم دون أن يتفوهوا بحرف واحد. ولما كانت تانيا تلميذة محبوبة بين زميلاتها وزملائها فإن ذلك المسلك الغريب أثار دهشتها وصرخت :

ماذا يعني هذا؟

ولم يجبها أحد.

فرفعت عينيها إلى الصحيفة وشرعت تقرأ:

الحياة المدرسية: -

في المدرسة رقم (2) حدث أمر مشين، اذ بلغنا أن الطالبة تانيا سابانيفا التلميذة في الفصل السابع صحبت زميلها كوليا سابا نيف أثناء الاعصار الأخير، وركبا مزلجة تجرها الكلاب وكانت النتيجة أن اضطر كوليا الى قضاء بقية أيام العطلة في الفراش. كذلك تأذت أصابع تلميذ آخر في الفصل ذاته، وهو فيلكا بيلويوبيسكي الذي ذهب إلى المعسكر ليبلغ والد كوليا بمغامرة ولده. وقد قام حرس الحدود بإنقاذ الحدثين. ترى ماذا جرى لعقلية منظمة الجوالة والهيئة التدريبية. حتى يفسح المجال لحدوث مثل هذه المخالفة السمجة للنظام؟

رددت تانيا بصوت مبحوح:

- ماذا يعني هذا؟

وتلفتت حولها فلم تر بجانبها إلا فيلكا الذي وقف بكل استقامة.

وفجأة عرفت ما يعنيه ذلك. لقد أدركت أن الرياح الباردة يمكنها أن تهب من كل صوب وأن باستطاعتها أن تتخلل أسمك الجدران، وتنفذ الى أدفأ بيت، وتخبط بك الأرض.

وتدلت ذراعها الى جانبيها، وانزلق معطفها من كتفيها الى الأرض. فلم تنحن لترفعه وإنما همست:

- ليس في هذه المزاعم ذرة واحدة من الصدق يا فيلكا.

أجاب فيلكا هامساً وهو يريها أصبعه المربوطة:

- قطعا لا؟
- وأضاف: -
- إنها لا تؤلمني أبدا. ترى كيف خطرت لهم تلك الأفكار السخيفة؟ لكن أصغي إليّ تانيا...أرجوك أن تصغي الي.
- كانت شفتاها قد انفرجتا، وتلاحقت أنفاسها، وبدت كأنها تشق طريقها في أعنف عاصفة، فلم تعد تميز شيئاً أو ترى شيئاً، وقالت:
- ماذا سيحل بي الآن؟

وضغطت على رأسها بكلتا يديها، وبدأت تجري مبتعدة عن المكان، باحثة عن الحل والعزاء في الحركة العنيفة كما هو دأبها.

ثم راحت تقطع الممر بخطوات واسعة مثلما يفعل النائم في احلامه. كان كتفها يرتطم بالجدار، وهي تمضي مسرعة بين الصغار، الذين راحوا يفرون من طريقها، وهم يولولون.

وحين بلغت ركن الممر، وانحرفت معه، اجتازت رجلاً مسناً، راح يشير إليها بطرف عصاه. ومع أنه كان مدير المدرسة، إلا أنها لم تلق إليه تحية الصباح. ونظر إليها الشيخ بأسى وهز رأسه. ثم ألقى نظرة على (أريستاروخ اريستارخوفيش اريستارخون ) مدرس التاريخ الذي قال :

- نعم تلك هي الفتاة. ولست بآسف أبداً على الخبر الذي أبلغته للجريدة عن تلك الحادثة. سارت تانيا في الممر، وكان خفقان قلبها المضطرب أعلى في أذنيها من صخب الصغار الذين يلعبون. ماذا كان عليها أن تفعل؟ وما للنكبات تلاحقها دوماً؟ وقالت تسائل نفسها: " أين ذهب جميع أصدقائي؟" ولم يخطر لها أنها هي التي كانت تفر منهم.

*

لم يشغل بال فيلكا سوى الوسيلة التي تمكنه من مساعدة تانيا في المحنة التي تجتازها، لكنه لم يجد في مسلكه أو مسلك زملائه في ذلك اليوم ما يمكن أن يعود عليها بالنفع.

كان أول ما خطر له أن يندفع خلف تانيا في الممر، لكنه حينما رأى اريستارخ اريستارخوف بكتفيه المرتفعتين، ومظهره الهادئ، ويديه الطويلتين غيّر تفكيره. وعاد أدراجه، لكنه لم ير في غرفة المعاطف ما يريح نفسه، فالأحداث مازالوا متجمعين عند الجريدة المعلقة على الحائط، بالإضافة إلى ذلك لاحظ فيلكا أن كتب تانيا مطروحة على الأرض، قرب المعطف الفرو الذي أهداه إليها والدها. كان التلاميذ قد داسوه بأقدامهم غير عابئين بالزخارف التي عليه، ولا بالجوخ والفرو اللذين يزينانه.

قال فيلكا، الذي كان من عادته أحياناً أن يغرق في التفكير، محدثاً نفسه بأن المقاتلين القدامى والمعاصرين أيضا، بخوذاتهم المرصعة بالنجمات الحمر، أذا لم يتعاونوا فيما بينهم أثناء الزحف، فإنهم لن يتوقعوا الانتصار على أعدائهم وأن أصدقاءك إذا كانوا لا يتذكرونك إلا إذا كنت حاضراً، وينسونك حالما تمضي في رحلة، فإنك لن تأمل مطلقاً ان تهتدي إلى طريق العودة، وأن الصياد إذا فقد سلاحه في الغابة، ولم يستطع أن يثق بأول رجل يقابله فيها، ويسأله عما إذا وجده، فإنه لن يستطيع، وهو المنفرد، أن ينام قرير العين في الغابة.

وثنى فيلكا ركبته فوق التراب بين حشد التلاميذ، فداسوا أصابعه، لكنه أفلح في جمع كتب تانيا، ثم أمسك بمعطفها وبدأ يسحبه من تحت الأقدام بكل طاقته. على أن ذلك لم يكن بالعمل السهل، إذ كانت جزمتان من اللباد، قد ثبتتا فوقه، ورفضتا التحرك عن موضعهما أنجاً واحداً. كانت الجزمتان عائدتين للولد السمين الذي طالما أساءت تانيا به الظن، والذي وقف الآن يصرخ بكوليا :

- سأكرره آلاف المرات. نعم سوف أفعل. وإن تانيا التي تدافع عنها ينبغي أن تطرد من زمرتنا.

نظر كوليا إليه بصمت. كانت قبعته الفرو لا تزال على راسه. ووجهه شديد الشحوب، وكان الغضب يحبس أنفاسه، ثم قال هامساً:

- قل كلمة أخرى عنها، لترى كيف ألتقطك مثل الجرو من رقبتك. وأطرحك بعيداً. ولن أبالي لسمنتك، قال الولد السمين وهو يقهقه ضاحكاً:
- أتحسب أنك تستطيع أن تحملني؟ عجباً...أنت لا تتمكن من زحزحتي عن الموضع.

وكان محقاً في قوله، لأن كوليا الذي مازال ضعيفاً بعد مرضه. كان عاجزاً من تحقيق وعيده، ورفع السمين قبضته وحاول أن يلكم كوليا. لكنّ فيلكا الجاثم على الأرض. نبذ أفكاره للحظة. ثم سدد يده الشديدة القوة من مادة تسلق الأشجار، وضرب السمين بطرف راحته. تحت ركبته مباشرةً. فانبطح هذا على الأرض متمدداً.

واذ دفع بهذه الطريقة. اللكمة الموجهة نحو كوليا، أسرع فالتقط معطف تانيا، وبعد أن نفض التراب عنه بعناية، علقه على المشجب. وحالما أنجز هذين الواجبين الهامين شرع في أداء الواجب الثالث. وسار إلى الفتى السمين وجره من كتفيه ليعينه على الوقوف على قدميه، ثم رفع أصابعه التي آذاها البرد، والمشدودة برباط قذر، وهزها في وجهه مهدداً بالقول:

- إنك غريب عن بلدنا وعن مدرستنا، لكن لا يمكن أن تصبح رجلاً ولو لمرة واحدة ؟ صدقني إذا قلت لك إني سأجعلك رجلاً حتى ولو كان ذلك آخر ما أقوم به.

وما كاد يكمل عبارته حتى رأى مدرس التاريخ اريستارخ اريستارخوف واقفاً على مقربة منهم. وللمرة الأولى كانت ذراعا المدرس متدليتين إلى أسفل. دون أن تمتدا إلى مسافة كبيرة وكان بصحبته كوستيا، قائد الجوالة الشاب، ومدير المدرسة وهو رجل متقدم في السن ومحبوب بين التلاميذ.

قال مدرس التاريخ اريستارخ اريستارخوف بصوت أجش :

- ابحثوا عن تانيا سابانيفا حالاً، وأرسلوها إلي.

تبادل الفتى السمين وفيلكا النظر، ثم نظر كلامها في وجه كوليا، وخفض الثلاثة أبصارهم إذ لم يعد لديهم أية رغبة في القتال أو الخصام، وقالو بصوت واحد:

- لسنا نعرف أين هي. إذ لم نرها في أي مكان. فكيف نرسلها إليك يا اريستارخ اريستارخوفيتش وتأبط كل منهم ذراع صاحبه، وساروا في صف واحد عبر الممر، وهم يسدون الطريق، وينشدون اغنيتهم المفضلة:
- " كونوا شجعان أيها الاصدقاء

وكونوا منفردين " . . إلخ

لبث الأولاد يترنمون بأغنيتهم بقية ساعات الصباح. لكن الاغنية باتت على شفاههم حين انتهى الدوام ولم يبدو لتانيا أثر. وران عليهم الصمت أثناء الدرس الأخير، وسقطت الأقلام من أيديهم. كان كل منهم قد غرق في أفكاره الخاصة.

كذلك بدت علائم التفكير وانشغال البال على الكسندرا ايفانوفنا، وظهر القلق على محياها الجميل الوضاء، وقامت تعدل النجمة الصغيرة على ثوبها ومضت تناشد تلامذتها بين حين وآخر : أين تانيا وأين ذهبت؟ إن الدوام قد انتهى تقريباً وليس ثمة أثر لها هنا أو في البيت، ألا يمكننا العثور عليها أيها الأولاد؟ لا شك أن فيكم عدداً من أصدقائها أليس كذلك؟

حين تنتهي الدروس تمسي المدرسة الساكنة الخالية مكاناً غريباً، إذ ينقطع الضجيج فجأة مثلما يتوقف المطر فجأة فوق الغابة. تاركاً أوراق الحور في ارتعاش تحت ثقل قطرات الماء. بينما يكون السكون قد تسلل إلى أشجار الصنوبر. وساد الصمت في كل مكان.

أما هذا اليوم فإن وقع الخطى لم ينقطع أبداً إذا استمر الصغار في ذرع الدهليز ذهاباً وإياباً. وقال كوليا لفيلكا :

- ربما ذهبت إلى النهر مرة أخرى.

وقال فيلكا لنفسه: "أو ربما وقفت تبكي في الغابة الصغيرة كما فعلت في ذلك اليوم " وعند بوابة المدرسة افترقا.

وجرى كوليا إلى حلبة التزحلق، ومضى يقطع المنحدر متعثراً بالثلوج التي تغطيه. وفقد النهر مظهره بعد أن تراكم الثلج في كل مكان. وتوهج الجليد فوق الجبال.

وهتف كوليا منادياً باسم تانيا مرةً وثانية وثالثة دون جدوى. لم يكن لدى النهر غير بريقه الذي يغشي الأبصار.

وفي الجانب الآخر من البلدة وقف فيلكا عند حافة الغابة التي اختفى ذات يوم خلف أخشابها لقد كان الثلج يومئذ في بداية هطوله، فهو خفيف حتى لتظن أنك قادر

على حمله وحمل الغابة معه على راحة يديك، أما الآن فالثلج قد تراكم على أشجار الصنوبر حتى ثنى أغصانها ومال بها نحو الأرض. لكن فيلكا ظل منادياً باسم تانيا. ولو أنه سمع رداً على نداءاته حتى ولو كان ذاك صدى صوته، لارتمى على الأرض بين الادغال وبكى. لكن السكوت لم يعكره شيء، وهكذا ترك فيلكا الغابة. ورجع وهو يتعثر بركام الثلج. وعند بوابة المدرسة التقى مرة أخرى بكوليا، وتسلل الاثنان إلى غرفة المعاطف، ولاذا بركن مظلم منعزل وتبادلا نظرة قلق وجزع. وتساءل فيلكا:

- ماذا ينبغي لنا أن نفعل الآن؟

وفجأة طرق سمعهما صوت نحيب خافت صادر من المكان الذي وضع فيه الحارس حطب الموقد، فبادرا إلى المكان وهما يهتفان: تانيا!!

لكنها لم تكن غير زينيا التي اخفت وجهها في الحائط، وجذبها فيلكا من كتفيها ليدير وجهها نحوه ويسألها: ماذا يبكيك؟

همست زينيا بصوت حزين: ربما...ربما ماتت!!

عاد كونيا الذي لم ينبس بحرف إلى مكانه المنعزل وجلس فوق الأرض مسنداً رأسه إلى ركبتيه.

في اثناء ذلك، كانت تانيا راقدة في غرفة يضع فيها الجوالة حاجاتهم، وتقع في الطابق العلوي. كان الجميع قد نسوا هذه الغرفة.

رقدت تانيا وسط البيارق ولوحات العرض حيث تدلت اللوحات الفنية بصورة مائلة على الجدران، وكأنها طيور على وشك التحليق. وانتشرت الطبول على قواعد النوافذ، وثبتت الأبواق اللماعة على الحيطان بالمسامير. كانت تلك أملاك الجولة، عالم من مواد الصخب، التي راحت تطل على تانيا من كل زاوية متفرجة عليها!

ووقفت فتاة صغيرة في الممر خارج المخزن، وهي تضرب الطبل المتدلي من رقبتها وقد ثبتت بصرها على العودين في يديها. كانت تتدرب.

ورن قرع الطبل في أرجاء الممر. وكأنما استجاب الأحداث لندائه، فارتقوا السلم واحداً تلو الآخر، يتقدمهم كوليا وفيلكا وزينيا ثم الفتى السمين ذي الخطى الثقيلة، وفي اعقابهم جاء كوستيا قائد الجوالة، والكسندرا ايفانوفا التي كانت تتحدث همساً.

تريث كوليا عند الباب منتظراً الآخرين ثم قال:

هذه غرفة خالية، ويمكننا عقد اجتماعنا فيها.

ودفع الباب ودخل دون أن ينظر حوله، ورغم أنه لم يفتش عن تانيا بعينيه إلا أن قلبه وعقله كانا مشغولين بها، وذلك لأن أفكاره كانت دائما تنصرف إليها. ولم يتوقع أن يجدها هنا، وحين أبصرها وه نائمة على السجادة السميكة التي تستعمل للقفز العالي، وقف مكانه مبهوتاً. وحرك شفتيه يناديها، لكنه عجز عن النطق، وجلس القرفصاء بجانبها ليمس كتفيها، لكنه لم يفعل، كانت غارقة في النوم والدموع ما زالت تبلل أهدابها!

والتفت نحو الآخرين مشيراً إليهم إشارة تنبيه، فوقفوا ومضوا يحدقون في تانيا، وهمست زينيا: دعوها نائمة، ولا يمسسها أحد!

لم تكن زينيا خسيسة في أعماقها، على الرغم من أن عبارتها: "ألم أقل لك ذلك" كثيراً ما جلبت الدموع إلى عيني تانيا. وأردفت زينيا قائلة :

- ألا يمكننا عقد اجتماعنا دونها؟ لقد عرفنا ما جرى، بعد أن أخبرنا كوليا بالحقيقة كلها.

فكرت الكسندرا ايفانوفنا لحظة وتفرست في وجوهم متفحصةً، وإذ وجدت أن الدافع كان نبيلاً، غطت شفتيها بيدها لتخفي الابتسامة التي ارتسمت عليها وقالت:

- أظن ذلك ممكناً، وأنا واثقة من أن كوستيا يؤيدني.

تفحص كوستيا وجوه الطلبة الذين في عهدته، كانوا جميعاً متفقين على تجنيب تانيا آلام جديدة. قال :

- النظام أولاً. لكن هذ حالة خاصة. ومن الممكن الاستثناء. وباستطاعتنا اتخاذ أي قرار مادام يحظى بموافقة الجميع.

أومأ كوليا إلى فيلكا وقال :

- أرجوك أن تؤدي لي معروفاً. اذهب إلى تلك الفتاة، وقل لها بأني سأقتلها إذا لم تكف عن التطبيل.

أحنى فيلكا رأسه وغادر الغرفة. ومضى إلى الفتاة الصغيرة فضربها بين كتفيها ضربةً خفيفة، لكنها كانت كافية لخلخلة توازنها، وقال لها:

- إن شخصا ما ينام هناك! وها أنت تثيرين من الضجيج ما يكفي لإيقاظ العالم كله، أليس لديك ذرة واحدة من الحياء؟

وبعد هذا سار الجميع في رتل فردي منظم على أطراف الأصابع، وفي المؤخرة سارت الفتاة الصغيرة. وقد جمدت في الهواء يدها التي تحمل عصى الطبل!

*

استيقظت تانيا بعد انصراف التلاميذ، وعادت وحدها إلى البيت، ورافقتها السماء الوردية حتى الباب، وأنعشها الهواء النقي وأزاح الهم عن صدرها، لكنه لم يرح ضميرها المثقل. كيف ستخبر والدتها بما حدث، دون أن تسبب لها الألم؟

لكن والدتها كانت في الخارج، وللمرة الأولى في حياتها أثار ذلك غضبها. ولم تسأل ناني عن الشاي أو العشاء. وإنما ارتمت على الفراش بكامل ثيابها وحذائها وهو شيء لا تتسامح فيه والدتها أبداً، وحدثت نفسها:

- وماذا يكون؟ لستُ أُبالي. إني لم أخطئ، وليس ذنبي أن تنقلب الأمور ضدي على هذه الصورة، وإني بلا أخوات او إخوة، وإنني أعاقب على ذنب لم أرتكبه، وان ناني امرأة مسنة، وإن ليس ثمة مخلوق أستطيع التحدث إليه في المنزل كله.. لماذا أنا منفردة دائما؟ دائما وحدي؟ إنها غلطة أمي. ولماذا هجرها أبي؟ لابد من سبب.

ولبثت تانيا مضطجعة على الفراش أمداً طويلاً دون أن تشعل النور، ولا تدري كيف غلبها النعاس فنامت، إذ كان في نيتها أن تبقى مستيقظةً لتثب من فراشها حال سماعها وقع خطى والدتها.

وهزّ أحدهم كتفها فتململت، كانت الغرفة مضاءة، وبين الأشكال المعتمة التي رأتها من خلال عينيها المتعبتين، لحظت والدتها وهي تنحني فوقها، وقد ارتسمت على محياها ظلال حزن خفي، وفي عينيها نظرة صارمة. وخيل إلى تانيا فجأة أن والدتها ترفع يدها لتضربها. فصرخت واستوت جالسة.

عبست والدتها وتساءلت :

- لم تنامين بثيابك؟ ألم أمنعك من ذلك مراراً؟ هيا قومي من رقدتك

لكن تانيا أدركت ان والدتها لم تكن تفكر في مخالفتها البسيطة تلك، وإنما في موضوع آخر.

ورددت الأم:

- قومي واشربي الشاي. لقد قابلتُ مدير مدرستك بناء على طلبه. قومي فإن لدي ما أقوله لك. لكن تانيا لم تتحرك، وإنما ظلت تقبض بيدها على طرف سريرها

الخشبي. وجلست والدتها بجانبها، ومست ذراعها برفق، ودلتها اللمسة على شدة قلق والدتها التي تساءلت:

- ما الذي أسمعه عنك؟ وكيف حدث ذلك كله؟

أجابت تانيا :

- ليس ذلك صحيحاً. هل صدقت حقاً ما زعموه؟

كان صوتها أجش، إذ لم تتفوه طيلة هذا اليوم إلا بضع كلمات.

- لم أصدقه، كما لم يصدقه أي انسان فيما عدا اريستارخ اريستارخوفيتش. بل إنه طلب بطردك.

سألت تانيا دون مبالاة :

- ولماذا؟
- لقد جعل نفسه سخيفاً حقاً. إذ زعم أن من كان مثلك يصبح قدوة سيئة للآخرين. لقد بدا مضحكاً بالفعل. وابتسمت والدتها ابتسامة باهتة، لكن تانيا لم تبتسم. ومضت الولدة في حديثها:
- ومما يسر أن لك أصدقاء كثيرين، منهم الكسندرا ايفانوفنا، وكذلك المدير وهو رجل لطيف وذكي رغم أنه كان مغتاظا من والدك.

قالت تانيا وقد بوغتت:

- هل كان أبي هناك هو الآخر؟

غضت الوالدة بصرها. كان العذاب باديا على وجهها. ثم قالت بصوت خفيض :

- لست قلقة بسبب ما نشر عنك في الصحيفة. لكنني قلقة عليك أنت. إنك لا تطلعيني على أحوالك. وإنما أعرف أمورك من الآخرين. حدثني الغرباء عن كوليا وعن تصرفك الغريب جداً. ولم أعرف أن زملائك يلقبونك بالدينغو. لقد أصبحت في الآونة الأخيرة طويلة الصمت كثيرة التحفظ. هل أنت خائفة مني؟ ألا تحبينني؟ أجيبي.

حركت تانيا رأسها إذ تعذر عليها النطق.

قالت تانيا أخيراً :

- إني وحيدة دائماً. ولستُ أجد غير نفسي.

ثم أضافت بصوت لا يكاد يسمع:

- لماذا هجرنا والدي؟ أخبريني وغلطة من كانت؟

لم تجبها والدتها على الفور. ولم تتجرأ تانيا على النظر في وجهها .

ودام الصمت دقيقة ودقيقتين وربما أكثر ثم بدأت والدتها تتحدث بصوت هادئ وثابت:

- إن الناس يعيشون معاً إذا كانوا متحابين يا تانيا. فإن ذهب الحب فإن لهم الحق أن يفترقوا. تلك هي حال الناس، وما ستكون عليهم حالتهم دائماً.

وتوقفت عن الحديث. فتجرأت تانيا ونظرت إليها، بحذر أول الأمر. كان رأسها محنياً، ومضت ترمق والدتها مثلما يفعل الطير الصغير إذ يحاول التأكد من خلو الفضاء من الأخطار، حين يروم الطيران.

وجلست الوالدة دونما حراك، وهي ترفع رأسها عالياً. لكن وجهها رسم صورة ناطقة لصراع هائل كان يدور في أعماقها. لكأنها كانت تعاني من أفظع عذاب، وبدت وكان أحداً يسلخ جلدها.

وسألت تانيا نفسها وهي تنعم النظر في وجه والدتها: ترى من الذي يعذبها هكذا؟ وفاض قلبها أسى ولوعة.

وتفرست في تانيا أجمل عينين في الوجود، وتألقت الدموع تحت الأهداب السود. وقالت الوالدة مقترحة :

- ربما كان من الأفضل يا تانيا أن نغادر البلدة.

وضعت تانيا يدها على صدرها وهتفت في ذهول وصوتها يفيض شفقة :

- أمي أنت ما زلت تحبينه.
- وألقت ذراعها حول عنق والدتها وضغطت خداً ملتهباً على شعرها، وكانت أنفاسها تغدو وتروح.
- أمي، لا تصغي إلي، لا تصغي إلي يا حبيبتي فلم أعد أفهم أي شيء. كل شيء صار يدور ويدور. إني مشوشة الذهن.

ذلك أن تانيا أحست فجأة أن العالم كله يدور في شبه دوامة حول رأسها. وهمست تانيا وقد امتزجت دموعها بدموع والدتها:

- لا تبكي يا أمي، ولنذهب بعيداً إذا شئتِ.

*

صرَّحت زينيا:

- هناك شتى ضروب الحب.

كانت تجلس في غرفتها مع تانيا عند النافذة التي وُضع على قاعدتها حوض زجاجي للسمك مملوء بالماء الصافي.

لقد انتهت الخصومة بينهما. وهاهما تنظران معاً من خلال ماء الحوض، إلى منظر مشوه للربيع في خارج الغرفة، وقد بدت الشمس الضخمة منحرفةً عن النافذة. وسألت تانيا صديقتها :

- هل سبق لكِ أن احببتِ ؟
- نعم إنما ذلك من عهد بعيد.
- وكيف عرفت أنه الحب؟
- ليس أسهل من ذلك. كان يقول لي : زينيا دعيني أنقل تمرين الحساب من دفترك. فأقول في نفسي : كلا، لن أدعه يفعل، لأني كنت أعلم أن ذلك غير جائز. لكنه كان يقول : أرجوك يا زينيا لن أضايقك مرةً أخرى، وهكذا منت أعطيه الدفتر بعد أن يرق قلبي له. لكن ذلك انتهى، إذ وضعت له حداً بنفسي حين بدأت أحصل على درجات رديئة في الدروس! سألت تانيا بفضول:
- كيف وضعت له حداً ؟
- اوه لقد كان ذلك سهلاً. كل ما في الأمر أني كففت عن النظر إليه ورحت اتشاغل عن رؤيته يوماً ويومين وهكذا إلى أن سلوته تماما.

اعتدلت تانيا في جلستها بينما ظلت عيناها تحدقان في ماء الدورق. ثم رمقت صديقتها بنظرة عابسة. لقد حسدتها من كل قلبها على خدودها الموردة وعلى عقلها المنطقي الذي يحمل مثل هذه الأفكار المدهشة، وتنهدت فقالت زينيا:

- لا تصفري في المنزل، فإن ذلك مجلبة لسوء الحظ!

حبست تانيا أنفاسها. فهذا المنزل يختلف في كل شيء عن منزلها هي. ومرت فترة صمت ثم قالت :

أنت محقة، هناك مختلف أشكال الحب.

وبدون أن تضيف كلمة اخرى، نهضت واقفة وغادرت المنزل.

وفي الخارج كان الربيع قد وصل، وحل في كل مكان ففي الغابة الصغيرة الكائنة خلف مسكن تانيا كان العشب قد نما حول الأغصان الرخامية لأشجار البتولا، وغطى جذور أشجار التنوب الزرق ببساط من الطحلب الطري، ونفضت شجرات التنوب أغصانها الشعثاء مغازلة الرياح الدافئة.

هتفت تانيا منادية فيلكا الذي صاح بدوره مجيباً إياها. كان جالساً بين أغصان شجرة يرهف حد قلمه بمدية الصيد، وقد دلّى ساقيه إلى الأسفل، وتكدست فوق ركبتيه كومة من الكتب والدفاتر.

كان فيلكا يبذل جهوداً كبيرة في تحضير واجباته المدرسية.

إنه لم يعد يفارق تانيا منذ يوم الإعصار، كانا يدرسان سويةً اعتماداً على الذاكرة اليقظة التي تملكها تانيا.

أمسكت تانيا بغصن غليظ لشجرة بتولا وقفزت متعلقة به ثم استوت جالسة بين فروع الشجرة. كان الغصن عارياً من الورق، لقد كانت جلستها هذه بجانب فيلكا مريحةً فعلا.

قال فيلكا معاتبا :

- إن الامتحان النهائي يبدأ غداً، وأنت تقضين ساعة كاملة في التمشي. وماذا يهمك إذا رسب أحد التلاميذ ما دمت تعرفين الدروس كلها. إنه سوف يرسب. وأنا واثق من ذلك. وكان من الممكن أن يتغير الحال لو استطاع أن يقضي وقتاً أطول في التعلم لكنكِ لست هناك حين يكون في أشد الحاجة إليكِ.

قلت تانيا :

- لكن يا فيلكا..لقد كان بإمكانك دراسة النظرية أثناء زيارتي لزينيا.

أجاب فيلكا بأسى :

- لقد حاولت لكن دون جدوى، إنها تتدحرج من رأسي وكأنها قد ركبت على عجلات.

فتحت تانيا كراستها وقالت، وعيناها تراقبان أوراق البتولا التي تهزها الريح :

- فلنعد إلى الدرس إذن...إذا تماست دائرتان في نقطة ...

لكن فيلكا راح يبري قلمه بمدية الصيد التي كانت تلتمع تحت أشعة الشمس مثل جناح حمامة الغابة.

- كلا انتظري وأخبريني أولا. أأنت ذاهبة حقا إلى الغابة عند الفجر مع كوليا ؟
- نعم لقد أخبرتك بأني ذاهبة.

- وهل هذا سرّ ارتدائك أفخر ثيابك وتسلقك الأشجار دون أن تهتمي بما يمكن أن يحدث لها ؟
- نعم
- واذا أصاب كوليا الرعب ولم يظهر؟

قالت تانيا وهي ما تزال تحدق في أشجار البتولا :

- إنه سيظهر!.
- وإذا اكتشف والدك الأمر؟
- إنه لن يكتشف.
- ألا تخشين أن يخبره أحد؟

هزت تانيا كتفها ورمقته بارتياب لتتأكد من أنه لا يسخر منها. ثم قالت:

- لا أحد يعرف سواك وأنت لن تخبره.

لكن فيلكا كان شديد الجد وقال مفكراً:

- إني أعرف المكان. إن الديكة البرية تأتي إليه عند الفجر لتتغذى، وهو أنسب وقت لصيدها لكنك فتاة. ولا يصحّ أن تذهبي إلى هناك.
- إني ذاهبة.

وعرف فيلكا من لهجتها أنها لن تغير رأيها.

لقد قال كل ما يتصور أنه يمكن أن يقنعها بالعدول عن رأيها. ولم يبق لديه ما يقول أو يفعله ونظر إليها صامتاً ومضى يتأمل انعكاس أشعة الشمس على ثوبها ووجهها وذراعها. ثم راح يحدث نفسه. لقد قطعت انفاسي لأثنيها عن عزمها، لكنها لا تخشى شيئا. لكنه حين رفع عينيه إليها، عجب من نظرة الفزع المرتسمة في عينيها، وقال وهو يتراجع إلى الوراء :

- ما الأمر؟

فصرخت :

- الدودة الخضراء.

ورآها تجذب ثوبها عند ركبتها وتثني قماشه وتطويه بارتباك، وتفعل ذلك مرة بعد أخرى وهي تردد:

- الدودة، الدودة.. إنها هناك.. أخ

قطعها بمديتك. إنها تمرضني!

تردد كوليا لحظة وحدق في مديته. كانت حادة مثل مثقاب الخشب. وطالما استعملها في استخلاص عصير النمل وصمغ الشربين وغيرها من الأطعمة الشهية التي تحبها تانيا.

ومدّ يده بحركة مفاجئة، فطارت السكين وتمزق معها قماش ثوب تانيا.

وللوهلة الاولى لم تعر تانيا الأمر اهماما، لكن الانفعال والخوف غمرها حين وجدت في يدها قطة القماش وهي تظنها الدودة المرعبة.

ثم استحال الخوف في وجهها إلى حيرة حيث لحظت الحفرة الواسعة في وسط ثوبها فخفضت ذراعيها بأساً.

- ماذا سألبس الآن؟ لماذا فعلت هذا يا فيلكا؟
- أنتِ التي أردتِ ذلك...لكني فعلته عمداً وعن قصد. إنك لن تستطيعي الآن مرافقة كوليا إلى الغابة أليس كذلك؟

صاحت :

- بل، سأفعل سوف أذهب مع ذلك.

ووثبت عن الشجرة إلى الأرض، واخترقت الأدغال ثم اختفت عن البصر بين أشجار البتولا وكأن عصفة ريح قد دفعتها بعيداً.

ولبث فيلكا في موضعه على الشجرة وسقط كتاب الهندسة الذي كان على ركبتيه، على الأرض مر سنجاب مخطط فتوقف عند الكتاب وكان في مخالب يديه جوزة، يريد أن يأخذها إلى حفرته تحت شجرة البتولا. وبغضب قذف فيلكا مديته نحو السنجاب فانغرست حافتها الحادة في التراب مباشرة تحت أنف السنجاب

المذعور الذي وثب عن مكانه، وهرب تاركاً جوزته، مختفيا عن الأنظار مثلما اختفت تانيا قبل قليل.

نزل فيلكا بهدوء عن الشجرة، ورفع الجوزة ووزنها بيده. كانت الجوزة كاملة لم يمس لبها. ولبضع دقائق لبث يحدق فيها دونما حراك إذ كان ذهنه منصرفا إلى تانيا. ثم عض غلاف الجوزة متذكراً أن الجوز لا يترك دون أكل!

*

نامت المدينة، ومع أن أيّ صوت مهما كان بعيداً، يسمع في الليل بجلاء، فإن السكون لم يقطعه شيء إذ كانت الشوارع خالية، ولم يغامر بالخروج إلا تانيا.

لقد خرجت في مثل هذه الساعة من قبل، ومشت في الشارع ذاته، لكنها كانت حينئذ مع فيلكا الذي يحمل لها عصا الصيد فوق كتفه. أما اليوم فهي تمشي منفردةً مهتدية بضوء النجوم المتجمعة في السماء كالعناقيد قبيل انبلاج الفجر وإذ دخلت الغابة، سارت في مسار عريض تستطيع أن تميز فيه طريقها أكثر من المسالك التي تظللها الأشجار. واعترضت طريقها الجذور الطوال والظلال الممتدة، لكنها لم تشعر بالخوف، ولم تجفل إلا حين كانت الأوراق الندية تمس وجهها بين الحين والحين، فترفعها من وجهها بيدها، وتمضي في طريقها وهي غارقة في افكارها.

ماذا ستفعل إذا صرح كوليا بحبه لها؟ لقد أتى إليها في اليوم السابق، ودعاها إلى هذا اللقاء قائلاً:

- " أرجوكِ، يجب أن تأتي، من أجلي، إني لم أشهد بعد مشرق الشمس في الغابة أرجوك أرجوكِ... تعالي ".

وها هي قد جاءت، وستبلغ المكان المحدد بعد دقيقة، لكن ماذا ينبغي لها أن تفعل؟ ماذا يفعل الانسان حينما يبوح له أحدهم بالحب؟ خصوصاً إذا كان لك والدة لا تملك أحداً في الدنيا غيرك. والدة قد ربطت وجودها كله بوجودك أنت؟

وارتعدت وضمت أطراف الرداء الطبي الأبيض حول جسدها. لقد استعارته من والدتها دون أن تستأذنها، وسارت في مسالك الغابة التي قادتها إلى القمة الصخرية.

جلس كوليا فوق صخرة كبيرة منتظراً وهو يحدق في الغابة. كان الرمل الأبيض يتألق تحت أشعة النجوم المتلاشية، وتلألأ الحصى وكأنه قد غسل بماء المطر تواً.

وفوجئ كوليا بظهور تانيا. ولم يتبينها بردائها الأبيض الطويل، وحاول أن ينفلت هارباً. لكنها نادته فعاد إليها خجلاً، ولم يعرف ماذا يقول.

ومضى الوقت متباطئا وهما صامتان. وعاد الاثنان إلى حافة الغابة، حيث تقف أشجار الصنوبر متشحة بالضباب فتبدو كأعمدة ملفوفة بالقطن. وتوقفا تحت صنوبرة عريضة الأغصان وسألها:

- لماذا ترتدين هذا الرداء ؟

- لأني لم اعد أستطيع ارتداء ثوبي الذي تحبه. لقد تلف!
- وما أهمية ذلك بحق السماء؟ ليست ثيابك هي ما أهتم به، بل أنتِ!
- دائماً؟
- دائماً، حتى حين تغيبين عن عيني، ذلك هو الأمر الغريب.
- نعم إنه لأمر غريب.

وجلسا تحت الصنوبرة. وأصغيا إلى حركة الأغصان فوق رأسيهما كانت الطيور تستيقظ، وخفق طائر بجناحيه فوق شجرة قريبة، ثم حلق بعيداً تاركاً أثرا داكناً في الهواء وراءه. قالت تانيا وهي تراقب طيرانه:

- لقد أمضى هذا الطائر ليلة طويلة فوق الشجرة ثم طار. لكنني مبتهجة لأنك تفكر بي. إن ذلك يعني أنك ستفكر بي دائما. أليس كذلك؟ حتى حين لا أكون هنا. إنني ذاهبة قريباً كما تعلم!

ندت عن كوليا صرخة خائفة لم يستطع التحكم فيها لأن كلمات تانيا أصابت قلبه في الصميم وسألها:

- هل تنوين السفر إذن؟

بذلت تانيا جهداً كبيراً حتى تجعل صوتها يبدو ثابتاً:

- نعم وأرى ذلك أفضل ما يمكن عمله. يستطيع والدي أن يبقى معك ومع ناديا. إنها لطيفة أيضا وهو يهواها. لكني لن أهجر أمي أبداً. وعلينا أن نسافر.
- لكن لماذا؟ أمازلتِ تكرهينني؟
- كلا كلا لا تقل كلمة أخرى حول هذا. لست أدري ما الذي جعلني أسلك ذلك السلوك عند أول قدومك. لقد كنت في أشد الخوف، إن أبي هو والدي أنا، وليس والدك. ربما كان ذلك سر عدم انصافي لك. لقد كرهتك وخفت منك. لكني الآن أنشد لك كل السعادة يا كوليا.

انفجر كوليا وقال مقاطعاً:

- كلا كلا إني أريد لك السعادة كذلك، ولوالدتك ولأبي ولخالتي ناديا. إني أرجو السعادة للجميع. لماذا لا يمكننا أن نكون سعداء كلنا؟

قالت تانيا مفكرة :

- ربما استطعنا أن نكون.. لست أدري.

وسكتت وهي تفكر في سعادتها هي وسعادة والديها.

كانت جالسة بوداعة، وظهرها إلى جذع الصنوبرة وكأنها تستمد الراحة والقوة من صلابتها، لكن شجرة الصنوبر ارتعدت قليلاً تحت وطأة رياح الليل الهابّة من جهة النهر، ثم أطل الفجر فاختفت جميع النجوم من السماء.

قالت تانيا وهي تطيل التحديق بعيداً حيث ارتفعت الشمس باهتة فوق الماء:

- أنا أيضا أرجو السعادة للجميع. والآن فمن الأفضل أن أذهب. لقد ارتفعت الشمس. وداعاً يا كوليا.

ونهضت إلى النهر ثم سارت مخترقة الغابة دون أن تعبأ باختيار الطريق الذي تمشي فيه. وصاح كوليا وهو يحث الخطى بجانبها:

- لا تذهبي يا تانيا. لا تذهبي إنك لم تقولي كل ما ينبغي أن تقوليه. ليس ذلك كل شيء. أليس كذلك ؟
- نعم ذلك كل ما عندي. أهناك شيء آخر تود أن تعرفه يا كوليا ؟

غض كوليا بصره خشية أن يحمر وجهه لو نظر إليها بحنان، ومضت تانيا تحدق في محياه بلطف ورقة. وانحنى اليها، ومسَّ خدها بشفتيه، فلم تتحرك. وران عليها الصمت. لكن طلقتي بندقية شقتا السكون فجأة، وتردد صداها في الجبال وحشرج صوت فوق شجرة سدر قريبة وسقط عند قدميها ديك بري مذهب أخضر. فأجفل كلاهما فزعاً.

اضطرب الديك على العشب قليلاً ثم همدت حركته. وتلاه ديك آخر بعد طلقة ثانية. وسقط قرب تانيا.

ومن وراء صنوبرة غليظة ظهر والد تانيا يتبعه فيلكا. كان كلاهما يحمل بندقية وفوق رأسيهما تجمعت حزم من الدخان بين الأشجار. وقال والدها :

- رائع !

فهرعت إليه، ولم يبدو عليه أي أثر للدهشة وإنما أمسك ذراعها بحنان وقال:

- حان وقت العودة أيها الأولاد. لستما ترغبان أن يفوتكما الامتحان؟

حمل فيلكا الطيرين الثقيلين ووضعهما مع البندقية فوق كتفه ومضى إلى كوليا وقال له:

- لقد كنا نصطاد، لأنّ هذا المكان تأتيه الكثير من الديكة البرية وقت الفجر من أجل الطعام.

كان كوليا يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه فخلع فيلكا جاكيته ورماها على كتفي صديقه. ولضيق الممر اضطرا إلى السير واحداً خلف الآخر، بينما قادت تانيا المسيرة مع أبيها. والتصقت به لتتجنب قطرات الندى. كانت ترفع عينيها بين الفينة والأخرى لتنظر في وجهه.

ومضى يسير مرفوع الرأس في مسالك الغابة دون أن يتعثر، ولوقع خطاه صدى. وضمها إلى صدره بقوة وقال:

- أنت تبدين مثل والدتك في هذا الرداء الأبيض.

أمسكت تانيا بيده فجأة ووضعتها على كتفها في الموضع الذي مسها، لدى أول لقاء لهما، ثم قبلتها وقالت:

- بابا...بابا الحبيب، اغفر لي! لقد كنت غاضبة منك سابقاً، لكني أفهم الآن كل شيء. إنها ليست غلطة أحد. لا غلطتي ولا غلطتك ولا غلطة أمي. هناك كثير من الناس يستحقون الحب. أليس كذلك ؟

قال: نعم

قالت برقة :

- هل ستغفر لي سوء تصرفي؟ لن أكون قاسية أبداً بعد اليوم. وهل أنت غاضب مني لخروجي مع كوليا إلى الغابة في هذه الساعة المبكرة ؟
- اوه كلا يا حبيبتي. فليس أجمل من الغابة وقت الفجر.

*

انقضى الربيع وانحسر ماء النهر فتعرت صخور ضفافه، وصارت الرمال عرضةً لأشعة الشمس الحارة طوال ساعات النهار، وزاد ألق الماء حتى صار يغشي الأبصار. وغزا وهج الصيف الجبال، فارتفعت تيارات الهواء الحارة حاملةً معها النسور والعقبان إلى أعالي السماء. لكن النسيم كان يهب أحيانا من البحر فتتحرك له فروع الأغصان من الغابة منتعشةٌ.

كانت تانيا تقوم بجولتها الوداعية للشاطئ الرملي يواكبها ظلها ويسايرها النهر بثبات وكأنه صديق يشيع صديقه قبل السفر.

واعترضها لسان رملي طويل فتوقفت. كانت معتادة أن تأتي إلى هنا مع فيلكا للسباحة في الصباح. لكن أين فيلكا؟ لقد امضت فترة الصباح في البحث عنه. فلم تجد له أثراً. لا بد أنه هرب عنها ليتجنب آلام الوداع.

لكنها كانت وحدها الملومة. فكم هجرت فيلكا خلال السنة الأخيرة المليئة بالأحداث وهي التي وعدته بأنها لن تستبدله بأي إنسان في الوجود. لقد كان صديقاً شهماً ومخلصاً، لا ينساها مهما كانت الظروف.

والآن وقد حان موعد فراقها لبلدتها الحبيبة، فإنّ صورة فيلكا المخلص كانت تملأ نفسها فيدفعها عرفانها بالجميل إلى البحث عنه والعثور عليه. لقد عقدت العزم على رؤيته قبل السفر ونادت بأعلى صوتها :

- فيلكا ! فيلكا !

وفجأة ظهر فيلكا من وراء الضفة الرملية. وأسرعت تانيا إليه وهي تغوص في الرمل وقالت معاتبة:

إنّ امي تنتظرني في الميناء يا فيلكا، وأنا أقضي الوقت باحثةً عنك منذ الصباح الباكر. ماذا تصنع هنا؟

قال فيلكا بلهجة أبناء قبيلته:

- أوه لست أفعل شيئاً مهماً، إني أستلقي على الرمال قليلاً. كان صوته منخفضاً وعيناها مطبقتان تقريباً. وابتسمت تانيا فقد كانت التعاسة بادية عليه، قالت وهي تكرر عبارته ضاحكة:
- تستلقي على الرمل قليلاً؟

لكنها قطعت حديثها فجأة. فقد لحظت أنّه عار حتى الخصر. وتحت أشعة الشمس المتوهجة كانت كتفاه قد اسودتا وتألقتا مثل صخور الشاطئ، وعلى صدره الذي لوحته الشمس برزت حروف خمسة بيض وبوضوح صارخ:

- ت ا ن ي ا . . . .

امتدت يد فيلكا بسرعة إلى صدره وبدا عليه الارتباك، وراح يتراجع إلى الوراء. ولولا النهر الذي منعه من الرجوع لكان قد بعد كثيراً.

بدأت تانيا تقترب من فيلكا وقالت:

- انتظر يا فيلكا انتظر !

توقف فيلكا ثم قال محدثاً نفسه "طيب ... أذا كان الوداع بين شخصين بهذه السهولة فليس يهمني أن يرى أحدهم هذه الحروف ".

لكن تانيا لم تنظر إليه بل حولت بصرها إلى الشمس وتأملت الضياء المتوهج فوق الجبال ثم رفعت راحتي فيلكا إلى الاعلى فوجدتهما فارغتين. كانت في أشد الدهشة وقالت:

- كيف قمت بذلك ؟

انحنى فيلكا بوداعة إلى الرمل. وقدم إلى تانيا خمسة حروف مقطوعة من ورق أبيض. وقال وهو يضعها فوق صدره:

- إني أجيء إلى هنا كل صباح، وآخذ حماماً شمسياً واضعاً الحروف على صدري كي يبقى اسمك فوقه أبيض. إنها إحدى بنات أفكاري. لكني أتمنى ألا تسخري مني.

ووضع يده فوق بلعومه، وذلك بالنسبة لفيلكا تعبير عن شدة الحزن. وأدركت تانيا أن الضحك لا يناسب المقام، وبحنان جديد عليها مست صدره بأصبعها وقالت:

- أي طفل أنت يا فيلكا، ستتلاشى لطخات الشمس وتختفي الحروف حالما يحل الشتاء وترتدي ملابسك الدافئة.

عبس فيلكا واشتدت حيرته، لقد نسي الشتاء تماماً ولم يخطر له على بال.

قال :

- أي غبي أنا!!

لكنه لم يستطع أن يعترف مع نفسه بذلك فقال بعناد:

- إن الشمس قوية ولابد أن بعض الأثر سيتبقى، أليس كذلك يا تانيا؟

فكرت تانيا قليلاً وقالت لترضيه:

- نعم لابد أن بعض الأثر سيبقى.

واغرورقت عيناها بالدموع ثم أضافت:

- أين سنكون نحن عندئذ؟ وهل سنجد عوضا عن صداقتنا النبيلة؟

لقد تقضى عهد الطفولة. من يستطيع أن يخبرهما كيف جرى ذلك. لا...حتى النهر الذي يجري بين الجبال الداكنة متوهجاً نحو الشمس ليس بقادر أن يفعل ذلك. وهناك في الأبعاد السحيقة الغامضة كانت تلوح أمامهما صور ومشاهد لا نهاية لها من أرض سحرية مشرقة لم يكتشفاها بعد. وتشابكت أذرعهما ووقفا يحدقان أمامهما. لم يلتفتا إلى الوراء مطلقاً. فقد كانا أصغر من أن يسترجعا الذكريات، لكنَّ قلبيهما كانا يتألمان لوشك الفراق.

قال فيلكا :

- الوداع يا دينغو... الوداع.

كان بوده أن يبكي بمرارة، لكنه كان ولداً شجاعاً ترعرع في غابة صامتة وعاش عند بحر كالح. وأرتمى فوق الرمال قرب الماء ورقد بلا حراك. ومضت تانيا تقطع شاطئ النهر الرملي، ورياح البحر تعصف شديدة عنيفة.

ترجمة: احسان الملائكة / بغداد 1969

من أدب العصر السوفياتي

# أحلام تانيا

ترجمة
احسان الملائكة

مكتبة ملهم